الكتاب الثاني

فرنسا قبل الطوفان

١٧٥٧ — ١٧٧٤

الفصل الثالث

حياة الدولة

١ — رحيل الخليلة

كانت مدام دبومبادور إحدى ضحايا الحرب . فقد ظل سحر شخصيتها حينا يسترق لب الملك بينما الأمة تنوح ، ولكن بعد أن حاول داميان إغتياله (٥ يناير ١٧٥٧) أرسل إليها لويس الخامس عشر كلمة يأمرها فيها بالرحيل فوراً ، وكأنه شعر فجأة بوجود الله . ولكنه أرتكب غلطة إنسانية حين أتى ليودعها ، ووجدها تحزم حقائبها هادئة حزينة ، فغلبه بعض ما بقى له من رقة وحنان ، وطلب إليها أن تبقى[1] . وسرعان ما ردت إليها كل امتيازاتها وسلطاتها السابقة ، فكانت تفاوض الدبلوماسين والسفراء ، وترفع الوزراء والقواد وتخفضهم . وكان مارك بيير دفوابيه ، كونت دارجنسون ، قد قاومها فى كل خطوة ، وحاولت أن تسترضيه قصدها ، فأفلحت الآن فى أن تحل الابيه دبرنيس محله وزيرا للشئون الخارجية ، ثم شوازيل (١٧٥٨) . واحتفظت بحنانها لأقربائها وللملك فقط ، وواجهت غير هؤلاء بقلب من حديد فى هيكل مريض ، وزجت ببعض خصومها فى الباستيل وتركتهم فيه سنوات[2] . وفى غضون ذلك راحت تدخر لغدها ، وزينت قصورها ، وأمرت بتشيد ضريح فخم لها تحت ميدان فاندوم .

obeikandl.com

وقد حملت فى نظر الشعب ، وفى البرلمان ، وفى القصر ، أكثر التبعة على هزائم فرنسا فى الحرب ، ولكنها لم تنل أى ثناء على إنتصاراتها ؛ فاعتبرت مسئولة عن الحلف البغيض مع النمسا ، وأن لم تكن سوى عامل صغير من عوامل ذلك التزاوج ، وأدينت بسبب الكارثة التى حاقت بالجيش فى روسباخ حيث قاد الفرنسيين رجلها سوبيز ، ولم يعرف نقادها — أو رأوه غير ذى صلة بالموضوع — أن سوبيز أشار بعدم خوض المعركة ، وأنه أكره عليها بتهور القائد الإلمانى . ولو أن الأمر كان بيد سوبيز ، ولو اتبعت خطته التى أشار بها — وهى تدويخ فردريك بالمسيرات وبهروب الجند من جيشه — ، ولو أن القيصرة اليزافيتا لم تمت فى هذا الظرف غير المواتى ولم تترك روسيا لفتى من عباد فردريك — لو أن هذا حدث فربما أنهارت مقاومة بروسيا ، ونالت فرنسا الأراضى الواطئة النمساوية ، وحملت بومبادور فوق بحر من الدماء لتهتف لها الأمة . ولكنها أخفقت فى استرضاء إله الصدفة العظيم .

وأبغضها البرلمان لأنها شجعت الملك على أن يتجاهله ، وأبغضها الأكليروس لأنها صديقة لفولتير ولكتاب الموسوعة ؛ وقال كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، أنه « يتمنى أن يراها تحرق بالنار[٣] ». وحين عانت الجماهير الباريسية من غلاء الخبز صاحت « أن تلك البغى التى تحكم المملكة تجر عليها الخراب » . وارتفع صوت من الغوغاء فى اليون دلا تورنل يقول « لو وقعت فى أيدينا هنا لما تخلف منها ما يكفى لاحالتها إلى رفات[٤] » . ولم تجرؤ على الظهور فى شوارع باريس ، وكان الأعداء يحيطون بها فى فرساى . وكتبت للمركيزة دفونتناى تقول « أننى وحيدة تماما فى وسط هـذا الحشد من صغار النبلاء ، الذين يبغضوننى والذين احتقرهم . أما أكثر النساء فحديثهن يصيبنى بصداع أليم . فغرورهن ، وخيلاؤهن ، وسفالتهن ، وخياناتهن ، تجعلنى لا أطيقهن[٥] » .

فلما استطالت الحرب ، ورأت فرنسا كندا والهند تختطفان منها ، وضيق فرديناند البرنزويكى الخناق على الجيش الفرنسى ، وظهر الجنود العائدون ،

جرحى أو مشوهين ، فى شوارع باريس ، وضح للملك أنه ارتكب خطأ محزنا بالأصغاء لكاونتز وبومبادور ، وفى ١٧٦١ التمس العزاء فى أحضان خليلة جديدة هى الآنسة رومان ، التى ولدت له الولد الذى سيصبح الآبيه دبوربون . وأرجفت الشائعات أن بومبادور ثأرت لنفسها بقبول شوازيل عشيقا لها[٦] ، ولكنها كانت أضعف ، وشوازيل كان أذكى ، من أن يسمحا بهذا الغرام ؛ لقد أسامت لشوازيل قوتها لا حبها ، ولعلها فاهت الآن بهذه النبؤة اليائسة « بعدى الطوفان[٧] » .

كانت على الدوام واهنة الجسد ، بصقت الدم حتى فى شبابها ، ومع أننا لسنا واثقين من أنها كانت تشكو السل ، فأننا نعلم أن سعالها ازداد ازديادا مؤلما وهى تقترب من الأربعين ، واستحال الصوت المرنم الذى كان يوما ما يأسر قلب الملك وحاشيته صوتا مبحوحا متوترا . وأفزع هزالها إصدقائها . وفى فبراير ١٧٦٤ لزمت فراشها بحمى مرتفعة والتهاب دموى فى الرئتين . وفى إبريل ساءت حالتها حتى أنها إستدعت موثقاً لتكتب وصيتها الأخيرة . فتركت فيها هبات لأقرباءها ، وأصدقائها ، وخدمها ، وأضافت « أن كنت قد نسيت أيا من أقربائى فى هـذه الوصية فأنى أرجو أخى أن يدبر معاشهم » . وأوصت للويس الخامس عشر بقصرها الباريسى ، الذى يشغله الآن رئيس جمهورية فرنسا باسم قصر الإليزيه . وكان الملك ينفق الساعات الكثيرة بجوار فراشها ، وندر أن ترك حجرتها فى أيامها الأخيرة ، وكتب الدوفين (ولى العهد) الذى كان عدوها دائماً إلى أسقف فردان يقول « إنها تموت بشجاعة يندر أن توجد بين الرجال أو النساء ورئتاها مملؤتان ماء أو صديدا ، وقلبها محتقن أو متضخم . إنه موت قاس مؤلم إلى حد لا يصدق[٨] » . وكانت — حتى لهذه المعركة الأخيرة ، ترتدى الثياب الفاخرة وتحمر خديها بالحافين . وظلت تملك حتى النهاية تقريباً . وأحاط أفراد الحاشية بأريكتها ، وراحت توزع الأنعامات ، وتعين الأشخاص فى المناصب الكبرى ، وكان الملك ينفذ الكثير من توصياتها .

وأخيرا سلمت بالهزيمة . فى ١٤ أبريل تلقت شاكرة القربان الأخير

الذى حاول التخفيف من الموت بالرجاء . وحاولت الآن ، وهى التى ظلت طويلا صديقة للفلاسفة ، أن تستعيد أيمان طفولتها . فصلت كما يصلى الطفل :

« أستودع الله روحى ، متوسلة إليه أن يرحمها ، وأن يغفر لى آثامى ، وأن يمنحنى نعمة الندم عليها والموت جديرة بمراحمه ، راجية أن أرضى عدله بهاء الدم الثمين ، دم يسوع المسيح مخلصى ، وبشفاعة العذراء مريم وجميع القديسين فى الفردويس[٩] » .

وهمست فى إذن القسيس الذى كان يبرح الحجرة وهى تعالج سكرات الموت : « إنتظر لحظة» سنبرح البيت معاً[١٠] . وماتت فى ١٥ أبريل١٧٦٤ مختنقة باحتقان فى رئتيها ، وكانت فى عامها الثانى والأربعين .

وليس صحيحا أن لويس تقبل موتها فى غير مبالاة ، فهو أنما أخفى حزنه فقط[١١] قال الدوفين : « أن الملك فى كرب شديد وإن تمالك نفسه أمامنا وأمام جميع الناس[١٢] » . فى ١٧ أبريل ، حين حمل جثمان المرأة التى ظلت نصف حياته طوال عشرين عاماً ، من قصر فرساى فى يوم قارس البرد شديد المطر ، خرج إلى الشرفة ليطل عليها وهى تبرح القصر وقال لتابعه شامبلوست « ستلقى المركيزة جواً رديئاً جداً » ولم تكن هذه ملاحظة عابثة ؛ فقد روى شامبلوست أن فى عينى الملك دموعا تترقرق ، وأن لويس إضاف قائلا فى حزن « هذه هى التعزية الوحيدة التى أستطيع تقديمها لها[١٣] » . ودفنت بناء على رغبتها جنبا إلى جنب مع طفلتها الكسندرين ، وفى كنيسة الكبوشيين التى اختفت الآن — فى ميدان فاندوم .

واغتبط البلاط لتحرره من سلطانها ، أما الشعب الذى لم يحس بسحرها فقد لعن إسرافها الشديد ، ولم يلبث أن نسيها ؛ وأما الفنانون والكتاب الذين ساعدتهم فقد حزنوا لفقد صديقة منعمة متفهمة . على أن ديدرو كان قاسيا فى حديثه عنها إذ قال : « إذن ماذا بقى من هذه المرأة التى كلفتنا هذا الثمن الغالى فى المال والرجال ، وتركتنا دون شرف ولا همة ، وقلبت نظام أوربا السياسى بأسره ؟ حفنة من تراب » وأما فولتير فقد كتب من فرنيه يقول :

« يحزنني جداً موت مدام دبومبادور . كنت مدينا لها بالفضل ، وأنا ابكيها عرفانا بصنيعها . ويبدو من السخف أنه فى الوقت الذى يظل فيه على قيد الحياة كاتب عجوز لا يكاد يقوى على المشى ، تموت امرأة حسناء فى عنفوان مجدها وهى بعد فى الأربعين . ولو أنها استطاعت أن تعيش كما أعيش فى هدوء ، فربما كانت اليوم حية . . . لقد أوتيت إنصافا فى عقلها وقلبها . . . إنها نهاية حلم . . .[١٤]

٢ — انتعاش فرنسا

لم تفق فرنسا عن حرب السنين السبع إفاقة كاملة حتى جاء نابليون . ذلك أن الضرائب الثقيلة كانت قد ثبطت الزراعة أيام لويس الرابع عشر ، وظلت تثبطها أيام لويس الخامس عشر ، فتركت آلاف الأفدنة التى كانت تزرع فى القرن السابع عشر بورا فى ١٧٦٠ وأخذت تتحول إلى برارى قاحلة .[١٥] واستنزفت الماشية والأغنام ، وشحت المخصبات ، وجفت التربة . وتشبث الفلاحون بطرق الفلاحة القديمة الرديئة ، لأن الضرائب كانت تزاد مع كل تحسين يزيد من ثروتهم . وافتقر كثير من الفلاحون إلى الدفء فى بيوتهم فى الشتاء إلا أن يلتمسوه من الماشية التى تسكن معهم . وأتلفت نوبات شاذة من الصقيع فى ١٧٦٠ و ١٧٦٧ المحاصيل والكروم خلال نموها . وكان محصول سيىء واحد كفيلا بأن يقرب قرية من المجاعة ، ومن الخوف من الذئاب الجائعة الرابضة حولها .

ومع ذلك بدأ الانتعاش الاقتصادى بمجرد توقيع الصلح . كانت الحكومة عاجزة فاسدة ، لكن إجراءات كثيرة اتخذت لاعانة الفلاحين . فوزع نظار الزراعة الملكيون البذار وشقوا الطرق ، ونشرت الجمعيات الزراعية المعلومات الزراعية ، وأقامت المسابقات ، ومنحت الجوائز[١٦] . واستجاب الكثير من السادة الاقطاعيين لحفز جماعة الفزيوقراطيين فاهتموا بتحسين وسائل الزراعة ومنتجاتها . وازداد عدد الملاك من الفلاحين . ففى عام ١٧٧٤ كان هناك ٦ ٪ فقط من السكان الفرنسيين يرزحون تحت نير القنية .[١٧] ولكن كل زيادة فى الانتاج كانت تجلب معها زيادة فى

السكان ، فالأرض غنية ، ولكن متوسط ملكية الفلاح صغير ، وهكذا ظل الفقر جاثما على الصدور .

ومن أصلاب الفلاحين جاء الفائض البشرى الذى زود الصناعات فى المدن النامية بالرجال . وكانت الصناعة باستثناءات قليلة لا تزال فى المرحلة البيتية واليدوية . وسيطرت منظمات رأسمالية واسعة النطاق على صناعة المعادن ، والتعدين ، وصناعة الصابون ، والمنسوجات . وكان بمرسيليا عام ١٧٦٠ خمسة وثلاثون مصنعا للصابون تستخدم ألف عامل . (١٨) وكانت ليون معتمدة فى رخائها على السوق المتنقلة لناتج أنوالها . وقد أدخلت آلات التمشيط الانجليزية حوالى عام ١٧٥٠ ، وحوالى عام ١٧٧٠ بدأ دولاب الغزل الذى يدير ثمانية وأربعون مغزلا فى وقت واحد يحل محل عجلة الغزل فى فرنسا . وكان الفرنسيون أسرع فى الاختراع منهم فى التطبيق ؛ فقد أعوزهم رأس المال الذى استطاعت انجلترة بفضل ثرائها من التجارة أن تستخدمه فى تمويل التحسينات الميكانيكية فى الصناعة . وكانت الآلة البخارية قد عرفت فى فرنسا منذ ١٦٨١ . (١٩) واستعملها جوزف كونيو عام ١٧٦٩ لتشغيل أول سيارة معروفة ؛ وبعد عام استعملت هذه السيارة لنقل الاحمال الثقيلة بسرعة أربعة أميال فى الساعة ، ولكن الآلة أفلت زمامها فهدمت جدارا ، وكان يجب وقفها كل خمس عشرة دقيقة لتزويدها بالمـــاء(٢٠) .

وكانت وسيلة النقل ، غير هذه الاستثناءات الغريبة ، هى الحصان ، أو عربة الجر ، أو عربة الركوب ، أو المركب ، وكانت الطرق والترع تفضل نظائرها فى انجلترة كثيرا ، ولكن الفنادق كانت أسوأ . وقد أسست خدمة بريدية منظمة عام ١٧٦٠ ؛ ولم تكن سرية تماما ، فقد أمر لويس الخامس عشر مديرى البريد بأن يفتحوا الخطابات ويبلغوا الحكومة بأى محتوى مريب فيها(٢١) . وتعطلت التجارة الداخلية من جراء المكوس ، والتجارة الخارجية نتيجة للحرب وضياع المستعمرات . وأفلست شركة الهند وحلت (١٧٧٠) . ولكن التجارة مع الدول الأوربية زادت زيادة كبيرة

خلال القرن ، فارتفعت من ٠٠٠ر٦٠٠ر١٧٦ جنيه فى ١٧١٦ إلى ٠٠٠ر٣٠٠ر٨٠٤ جنيه فى ١٧٨٧ ، غير أن بعض هذه الزيادة لم يكن إلا انعكاسا للتضخم ، وازدهرت التجارة مع جزر الهند الغربية الفرنسية فى السكر والعبيد .

وكان للتضخم التدريجى ، الراجع بعضه إلى تزييف العملة ، وبعضه إلى إنتاج العالم المتزايد من الذهب والفضة ، أثر مشجع للمغامرة الصناعية والتجارية فكان رجل الأعمال يستطع عادة أن يتوقع بيع ناتجه بسعر أعلى مما أشترى به عرق العمال ومواد الصناعة . وهكذا تضخمت ثروات الطبقة الوسطى ، فى حين بذلت الطبقات الدنيا ماوسعها من جهد لتقرب بين دخولها وبين الأسعار . على أن هذا التضخم الذى مكن الحكومة من غش دائنيها هبط بقيمة دخلها ، فارتفعت الضرائب بنزول قيمة الجنيه ، وأصبح الملك معتمداً على كبار الصيارفة أمثال إخوان بارى ، لاسيما بارى — دوفرنيه ، الذى أبهج بومبادور كثيراً بشعوذته المالية حتى استطاع خلال الحرب أن يرفع الوزراء والقواد ويخفضهم .

وكان أهم تطور اقتصادى فى فرنسة القرن الثامن عشر انتقال معظم الثروة من ملاك الأرض إلى المسيطرين على الصناعة ، أو التجارة ، أو المال ، ولاحظ فولتير فى ١٧٥٥ « نظراً إلى مغانم التجارة المتزايدة . . نقصت ثروة كبار القوم عن ذى قبل ، وزادت الثروة فى الطبقة الوسطى . وأسفر هذا عن تقريب الفجوة بين الطبقات »[٢٢] واستطاع رجال أعمال مثل لا بوبلنيير أن يشيدوا قصوراً يحسدهم عليها الأشراف ، وأن يزينوا موائدهم بأعظم الشعراء والفلاسفة فى المملكة ، وغدت البرجوازية راعية الآداب والفنون . وعزت الاستقراطية نفسها بالتشبث بامتيازاتها والظهور بمظهرها الرفيع . وأصرت على نبل المولد شرطاً للانخراط فى وظائف ضباط الجيش أو الأساقفة ، وتباهت بشعارات نبالتها وأنسابها المتكاثرة ؛ وكافحت — عبثا فى كثير من الأحيان — لتقصى أفراد الطبقة العامة الأكفاء أو النابهين عن الوظائف الإدارية العليا وعن البلاط . وطالب البورجوازى الغنى بأن يفتح مجال الترقى للموهبة أياً كان نسب صاحبها ، فلما أغفل مطلبه راودته فكرة الثورة .

وإذا استثنيا من حرب الطبقات جانب الفلاحين ، فإن جمع الجوانب المشاركة فيها اتخذت لهـــا شكلا مرئياً فى ضحيج باريس وفخامتها . فنصف ثروة فرنسا انسابت إلى عاصمتها ، ونصف فقر فرنسا تقيح فيها ،وقال روسو إن باريس« ربما كانت المدينة الوحيدة فى العالم التى تعظم فيها فوارق الثروات ، والتى يسكن فيها الثراء الصارخ والفقر المدقع جنباً إلى جنب » (٢٣) . وكان ستون من الفقراء المعانين جزءا من الحرس الرسمى المرافق لجثمان ابن الدوفين البكر فى ١٧٦١ (٢٤) . وحوالى عام ١٧٧٠ كانت باريس تحوى ٦٠٠,٠٠٠ نفس من بين سكان فرنسا البالغين ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ (٢٥) . وتؤوى أكثر أهل أوربا نشاطا ، وأوسعهم إطلاعاً ، وأشدهم فجوراً . وفيها أفضل الشوارع رصفاً ، وأفخم الطرق المشجرة والمتنزهات ، وأزحم حركات المرور ، وأجمل الحوانيت ، وأفخر القصور ، وأظلم الأكواخ ، وطائفة من أبدع الكنائس فى العالم . وقد تعجب منها جولدونى الذى وفد عليها من البندقية فى ١٧٦٢ فقال فى وصفها :

« يالها من حشود ! وأى تجمع للناس من جميع الأوصاف ! .. وأى منظر مدهش استرعى حواسى وذهنى وأنا أدنو من التوبلرى ! رأيت اتساع رقعة تلك الحديقة الهائلة ، التى لا نظير لها فى الدنيا ، والتى لم تستطع عيناى أن تقيسا طولها . . ثم نهراً جليلا ، وكبارى عديدة مريحة ، وأرصفة شاسعة ، وحشوداً من العربات ، وزحاماً من الناس لا آخر له » (٢٦) .

وكانت مئات المتاجر تغرى الأغنياء والمفلسين ، ومئات الباعة يسرحون ببضائعهم فى الشوارع ، ومئات المطاعم (وقد ظهرت الكلمة restaurants أول ماظهرت فى ١٧٦٥) تعد بتعويض الجياع restore عن جوعهم ، ومئات التجار يجمعون التحف القديمة أو يزيفونها أو يبيعونها ، ومئات الحلاقين يقصون ويبدرون الشعور أو الباروكات حتى لطبقة الحرفيين . وفى الأزقة الضيقة كان الفنانون والحرفيون ينتجون الصور ، والأثاث ، والثياب ، والحلى المبهرجة لأثرياء القوم . وهنا كانت عشرات المطابع تطبع الكتب ، متعرضة أحياناً لخطر شديد ، وفى ١٧٧٤ قدرت تجارة الكتب فى باريس بمبلغ

٤٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو أربعة أمثال تجارة لندن فيها .[٢٧] قال جاريك : « إن لندن تصلح للإنجليز ، أما باريس فتصلح لكل إنسان »[٢٨] وقال فولتير : فى ١٧٦٨ « لدينا أكثر من ثلاثين ألف شخص فى باريس يهتمون بالفن » .[٢٩] هناك كانت عاصمة العالم الثقافية دون منازع .

٣ — الفزيوقراطيون

فى شقة بفرساى تحت مسكن مدام دبومبادور وعينها الراعية ، تكونت تلك النظرية الاقتصادية التى قدر لها أن تحرك الثورة وتصوغها ، وتشكل رأسمالية القرن التاسع عشر .

وكان الاقتصاد الفرنسى يكافح منذ زمن طويل ليشب عن الطرق برغم ما قيد به من أقمطة اللوائح والنظم — التى وضعتها طوائف الحرفيين وكولبير ، ومن خرافة كخرافة الملك ميداس ، خرافة « المركنتلية » التى خالت الذهب هو الثروة . فسعيا إلى زيادة الصادرات ، والتقليل من الواردات وأخذ « الفرق الذى فى صالح الدولة فضة وذهباً لدعم القوة السياسية والحربية ، كانت فرنسا وانجلترة قد أخضعتا اقتصاديهما القوميين لشرك من القواعد والقيود أعانت على التنظيم الاقتصادى ولكنها عطلت الانتاج بتعطيلها الابتكار والمغامرة والمنافسة . كل هذا — كما قال رجال مثل جورنيه وكزنيه ، وميرابو الأب ، ودوبون دنمور ، وطورجو — مناقض كل المناقضة للطبيعة ، فالانسان بطبيعته محب للاقتناء ، والتنافس ، فاذا حررت طبيعته من الاغلال التى لاداعى لها أدهش العالم بمقدار ما ينتج ، وتنوعه ، وجودته . يقول الفزيوقراطيين « إذن فلنترك الطبيعة (وهى بالاغريقية Physis) تحكم (Kratein) ولنترك الناس يخترعون ، ويصنعون ، ويتجرون وفق غرائزهم الطبيعية » ، أو كما قال جورنيه فيما روى « اتركهم يفعلون Laissez faire ما يرونه هم أصوب ما يكون» . وكانت هذه العبارة قديمة فعلا ، فحوالى عام ١٦٦٤ ، حين سأل كولبير رجل الأعمال لجاندر « ما الذى يجب أن نفعله نحن (أى الحكومة) لمساعدتك ؟ أجابه « Nous laisserfaire » اتركونا نفعله . . . اتركونا وشأننا .[٣٠]

وكان صوت جان — كلود فانسان دجورنيه أول صوت واضح للفزيوقيراطيين فى فرنسا . ولاشك فى أنه كان يعلم بالاحتجاجات التى قدمها بواجلبير وفوبان للويس الرابع عشر على القيود الخانقة التى فرضت على الزراعة فى ظل النظام الاقطاعي . وقد أعجب بكتاب السرجوسيا تشايلد « ملاحظات موجزة عن التجارة والفائدة » (١٦٦٨) إعجاباً حمله على ترجمته إلى الفرنسية (١٧٥٤) ، وأغلب الظن أنه قرأ كتاب رتشرد كانتلون « مقال عن طبيعة التجارة » (حوالى ١٧٣٤) فى طبعته الفرنسية (١٧٥٥) . ويؤرخ البعض من هذا الكتاب مولد الاقتصاد بوصفه « علما » — أى تحليلاً منطقيا لمصادر الثروة ، وانتاجها ، وتوزيعها . قال كانتلون « أن الأرض هى المصدر أو المادة التى تؤخذ منها الثروة ، ولكن الجهد البشرى هو الشكل الذى ينتج الثروة » ، ولم يعرف الثروة بأنها الذهب أو النقود ، بل « صيانة الحياة ، ووسائل الراحة وأسبابها »[٣١] وكان هذا التعريف فى حد ذاته ثورة فى النظرية الاقتصادية .

وكان جورنيه تاجرا ميسورا يعمل أول الأمر (١٧٢٩ — ١٧٤٤) فى قادس . وبعد أن اشتغل بمعاملات تجارية واسعة النطاق فى انجلترة ، وألمانيا ، والأقاليم المتحدة ، استقر فى باريس ، وعين « ناظرا للتجارة » (١٧٥١) . وفى رحلاته المتيشية فى أرجاء فرنسا لاحظ بشخصه القيود التى فرضتها اللوائح النقابية والحكومية على المشروعات الحرة والتبادل الاقتصادى ، ولم يخلف لنا صيغة مكتوبة لأرائه ، ولكن لخصها بعد موته (١٧٥٦) تلميذه طورجو . وقد حث على التخفيف من النظم واللوائح الاقتصادية القائمة ، أن لم يكن الغائها . فكل إنسان يعرف خيراً مما تعرف الحكومة الإجراء الذى يلائم عمله خير ملائمة ، فأذا كان حراً فى السعى إلى مصلحته إزداد إنتاج السلع ونمت الثروة[٣٢] .

« هناك قوانين فريدة أزلية ، مؤسسة على الطبيعة وحدها ، بمقتضاها توازن جميع القيم الموجودة فى التجارة بعضها بعضا وتثبت نفسها عند سعر مقرر ، تماماً كما تنظم الأجسام المتروكة لثقلها نفسها وفق وزنها النوعى [٣٣] » .

أى أن القيم والأسعار تحددها العلاقات بين العرض والطلب ، وهى علاقات تحددها بدورها طبيعة الإنسان . وخلص جورنيه إلى أن الدولة يجب إلا تتدخل فى الاقتصاد إلا لتحمى الحياة ، والحرية ، والملكية ، ولتشجع الإنتاج كما وكيفا باسباب التشريف والمكافآت . وقد قبل مسيو تروديين رئيس مجلس التجارة هذه المبادىء ، وخلع عليها طورجو قوة بلاغته وإستقامته المعترف بها .

أما فرانسوا كزنيه فقد أتبع خطاً فزيوقراطيا مختلفا إختلافا طفيفا . فهو لم ينس قط إهتمامه بالأرض لأنه مالك للأرض ، ولو أنه أعد ليكون طبيبا ، وقد جمع لنفسه ثروة بحذقه فى الطب والجراحة ، وارتقى حتى أصبح طبيبا لمدام دبومبادور وللملك (١٧٤٩) . وقد جمع فى مسكنه بفرساى لفيفا من الزنادقة — دوكلو ، وديدرو ، وبوفون ، وهلفتيوس ، وطورجو . . . هناك كانوا يناقشون كل شىء فى غير تحرج إلا شخص الملك ، الذى كانوا يحلمون بأن يجعلوا منه « حاكما مطلقا مستنيرا » يكون إداة للأصلاح السلمى ، وشعر كزنيه الغارق إلى إذنيه فى عصر العقل ، أن قد آن أوان إستخدام العقل فى الاقتصاد . ومع أنه كان دجماطبقياً شديد الإعتداد بنفسه فى كتبه ، فأنه كان فى شخصه إنسانا رقيقا يتميز بالنزاهة فى محيط لا يقيم الأخلاق وزنا .

وفى ١٧٥٠ ألتقى بجورنيه ، وسرعان ما فاق أهتمامه بالاقتصاد أهتمامه بالطب . وقد شارك بمقالات فى موسوعة ديدرو تحت أسماء مستورة بعناية . وقد عزا فى مقاله « المزارع » هجر الزراع لهـــا إلى الضرائب المرتفعة والتجنيد الأجبارى . ولاحظ مقاله « الغلال » (١٧٥٧) أن المزارع الصغيرة تعجز عن الأفادة من أكثر الوسائل إنتاجا ، وحبذ المزارع الكبيرة التى يديرها « المقاولون » — وهذا سبق للشركات الزراعية العملاقة فى عصرنا . وقال إن على الحكومة أن تحسن الطرق ، والأنهار ، والقنوات ، وأن تلغى كل المكوس على النقل ، وتحرر حاصلات الزراعة من جميع قيود التجارة .

وفى عام ١٧٥٨ نشر كزنيه « جدولا اقتصاديا » أصبح البيان الرسمى الأساسى للفزيوقراطيين . ومع أنه طبع فى المطبعة الحكومية بقصر فرساى بأشراف الملك ، فأنه إدان الترف بأعتباره استعمالا مبدداً للثروة كان يمكن إستخدامه فى إنتاج مزيد من الثروة . وقد قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : « طبقة منتجة من الزراع ، والمعدنيين ، وصيادى الأسماك ؛ وطبقة قابلة للتوجيه (disponiles) من الأشخاص الذين يستخدمون فى الوظائف العسكرية أو الإدارية ، وطبقة غير مثمرة Classe stérile من مهرة الصناع الذين يحولون حاصلات الأرض إلى أشياء نافعة ، والتجار الذين يوصلون الحاصلات إلى المستهلك . وإذ كانت الضرائب المفروضة على الطبقة الثانية أو الثالثة تقع فى النهاية (فى رأى كزنيه) على ملاك الأرض ، كانت أكثر الضرائب تمشيا مع العلم وانسبها هى ضريبة واحدة (impot unique) تفرض على صافى الربح السنوى لكل قطعة من الأرض . ويجب أن تجمع الضرائب مباشرة بواسطة الدولة ، ولا تجمع أبدا بواسطة الماليين من الأهالى (الملتزمون العموميون) ، ويجب أن تكون الحكومة ملكية مطلقة وراثية .

وتبدو مقترحات كزنيه اليوم وقد أفسدها الغض من قدر العمل ، والصناعة ، والتجارة ، والفن ، ولكن بعض معاصرية رأوا فيها الهاما منيرا. وفى رأى أكثر أتباعه حيوية وهو فكتور ريكيتى ، مركيز دميرابو ، أن « الجدول الاقتصادى » نافس الكتابة والنقود فى كونه من أجل ابتكارات التاريخ . وقد اجتاز هذا المركيز عصر فولتير من أوله لآخره بالضبط ، لأنه ولد فى ١٧١٥ ومات فى ١٧٨٩ . ورث ثروة طيبة ، وعاش عيشة الأمراء ، وكتب كما يكتب الديموقراطيون ، وعنون أول كتاب له « صديق الناس » ، أو مقال فى السكان (١٧٥٦) وإستحق بذلك الأسم الذى اتخذه « صديق الإنسانية » . وبعد أن نشر رائعته تأثر بكزنيه ، فراجع بناء على ذلك كتابه وزاده ، إلى بحث من ستة مجلدات طبع أربعين طبعة وشارك فى إعداد فكر فرنسا لثورة ١٧٨٩ .

ولم يقلق تكاثر البشر المركيز كما سيقلق مالتوس فى ١٧٩٨ . فقد آمن بأن الأمة تعظم بكثرة سكانها ، وأن هذا يسيره « توالد الناس كما تتوالد الفيران فى جرن إذا توفرت لها أسباب الحياة[٣٤] وهو ما زلنا نراه إلى الآن. وخلص إلى وجوب تشجيع إنتاج الطعام بكل الوسائل . وذهب إلى أن التفرقة فى توزيع الثروة تثبط إنتاج الطعام ، لأن ضياع الأغنياء تشغل الأرض التى كان فى الأمكان أن تصبح مزارع خصبة . وقالت مقدمة ميرابو للملك أن الفلاحين :

« هم أكثر الطبقات إنتاجا ، الذين لا يرون من تحتهم إغير مرضعتهم ومرضعتك — الأرض الأم ، والذين يرزحون إبدا تحت ثقل أشق الأعمال والذين يباركونك كل يوم ، ولا يسألونك شيئا غير السلام والحماية . وبفضل عرقهم ، بل ودمهم "ذاته (وهو ما لا تعرفه !) تشبع مطامع ذلك الحشد من البشر غير النافعين الذين لا يفتأون يقولون لك أن عظمة الملك فى قيمة وعدد ؛ . . النعم التى يقسمها على إفراد حاشيته . لقد رأيت مساعد جاب للضرائب يقطع يد امرأة فقيرة تشبثت بقدرها لتمنع إستيلاءه عليها وفاء للدين ، وكانت آخر ما فى بيتها من آنية . فماذا كنت تقول فى هذا أيها الملك العظيم[٣٥] ؟

وقد هاجم المركيز الثائر فى كتابه « نظرية الضرائب » (١٧٦١) الملتزمين إالعمومين بجباية الضرائب لأنهم طفيليون يغتالون أقوات الأمة ؛ وحرض الماليون الغاضبون لويس الخامس عشر على أن يحبسه فى الشاتو دفانسين (١٦ ديسمبر ١٧٦٠) ولكن كزنيه أقنع مدام دبومبادور بأن تتشفع له ، وأطلق لويس سراح المركيز (٢٥ ديسمبر) ولكنه أمره بأن يلزم ضيعته فى لوبنيون . وأحال ميرابو الضرورة إلى فضيلة ، فدرس الزراعة دراسة عملية مباشرة . وفى ١٧٦٣ أصدر كتاب « الفلسفة الريفية » الذى قيل فيه إنه « أشمل بحث فى الاقتصاد قبل آدم سميت[٣٦] » ، ووصفه جريم بأنه « الأسفار الموسوية للمذهب الفزيوقراطى[٣٧] » . وبلغت جملة مؤلفات

هذا المركيز ، الذى كان نسيج وحده ، أربعين كتابا حتى عام وفاته — وذلك رغم المتاعب التى سببها له أبنه الذى زجه فى السجن حين أعيته الحيل عسى أن يكون فى ذلك سلامة لكليهما . وكان كابنه ذاك عنيفا فاسقا ، تزوج للمال ، وأتهم امرأته بالزنا ، وتركها تعود إلى أبويها ، واتخذ له خليلة : وقد نكد بأوامر الاعتقال الملكية باعتبارها ضربا من الظلم لا يطاق ، وبعد ذلك حمل الوزارة على أن تصدر خمسين أمراً منها لتعينه على تأديب أسرته(٣٨) .

وليس من اليسير علينا أن ندرك اليـــوم ذلك الهيجان الذى أثارته مطبوعات الفزيوقراطيين ، والحماسة التى اصطبغت بها حملاتهم . وتطلع تلاميذ كزنيه إليه كأنه سقراط الاقتصاد : وعرضوا عليه كتاباتهم قبل طبعها ، وفى كثير من الحالات كان يشارك فى كتبهم . وفى ١٧٦٧ إصدر لومرسييه دلا ريفيير ، الذى حكم المارتنيك فترة ، كتابا عده آدم سمث أوضح شرح للمذهب وأفضله ترابطا(٣٩) وأسمه « النظام الطبيعى الأساسى للمجتمعات السياسية » يقول فيه أن فى العلاقات الاقتصاديه قوانين تقابل تلك التى وجدها نيوتن فى الكون ، والعلل الاقتصادية منشؤها أغفال تلك القوانين أو أنتهاكها :

« أتريدون لمجتمع ما أن يبلغ الغاية فى الثراء ، والسكان ، والقوة ؟ أتركوا مصالحه إذن للحرية ، وليكن هذا قانونا عاماً . فبفضل هذه الحرية (التى هى العنصر الأساسى للصناعة) وبفضل الرغبه فى التمتع — التى تحفزها المنافسه وتتبرها الخبرة والقدرة — تضمنون أن يسعى كل إنسان على الدوام لاقصى مصلحة مستطاعة له ، ومن ثم يسهم بكل ما فى مصلحته الخاصة من قدرة فى الخير العام ، سواء للحاكم ولكل فرد فى المجتمع (٤٠) » .

وقد لخص بيير — صموئيل ديون هذه الدعوة فى كتابه « الفزيوقراطية » (١٧٦٨) الذى خلع على المذهب أسمه التاريخى . كذلك نشر ديون النظرية فى دوريتين كان نفوذهما محسوسا من السويد إلى توسكانيا . وقد عمل مفتشا

عاماً للصناعات تحت رآسة طورجو ، وسقط بسقوطه (١٧٧٦) . وعاون على المفاوضة مع إنجلتره على عقد المعاهدة التى أعترفت بأستقلال إمريكا (١٧٨٣) . وإنتخب عضوا بمجلس الأعيان (١٧٨٧) والجمعية التأسيسية (١٧٨٩) . وتميزا له فى هذه الجمعية عن عضو آخر يدعى ديون ، سمى ديون دنمور ، نسبة للمدينة التى مثلها . وقد عارض اليعاقبة فتعرض للخطر حين تقلدوا زمام الأمور ، وفى ١٧٩٩ نفى نفسه إلى إمريكا ، ثم عاد إلى فرنسا عام ١٨٠٢ ، ولكن فى ١٨١٥ اختار الولايات المتحدة وطنا نهائيا له ، وهناك أسس أسرة من أشهر الأسر الأمريكية .

وبدا فى ظاهر الأمر أن مذهب الفزيوقراطيين يناصر الاقطاع ، لأن السادة الاقطاعيين كانوا إلى ذلك الحين يملكون أو يتقاضون الرسوم الاقطاعية من ثلث أرض فرنسا على الأقل . ولكنهم — وهم الذين لم يكونوا يدفعون أى ضرائب تقريبا قبل ١٧٥٦ — هالتهم فكرة تحميل ملاك الأرض جميع الضرائب ، كذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا إلغاء المكوس الاقطاعية على نقل البضائع داخل أملاكهم . أما الطبقات الوسطى ، التى كانت تتوق إلى تشريعات جديدة ، فقد ساءها زعم الفزيوقراطيين أنها شطر عقيم غير منتج من الأمة ومع أن جماعة الفلاسفة كانوا فى الغالب يوافقون الفزيوقراطيين على الاعتماد على الملك أداة للاصلاح إلا أنهم لم يستطيعوا موافقتهم على مصالحة الكنيسة[٤١] . وقد ذهب ديفد هيوم ؛ الذى زار كزنية فى ١٧٦٣ ، إلى أن الفريوقراطيين أكثر ما يوجد اليوم من الجماعات تعلقاً بالأوهام وخيلاء منذ تدمير الصوريون . وسخر منهم فولتير (١٧٦٨) فى قصيدته اللاذعة المسماه « الرجل ذو الأربعين أيكوه »[٤١] . وفى ١٧٧٠ أصدر فرديناند وجاليانى ، وهو ايطالى من المترددين على « مجمع » الملحدين الذين كان يجمعهم دولباخ فى بيته كتابا اسمه « حوار حول تجارة الغلال » ترجمه ديدرو إلى الفرنسية فى السنة نفسها . وقال فولتير ان أفلاطون ومولير لابد قد شاركا فى كتابة هذا المؤلف فى الاقتصاد الذى كان « علما يقبض الصدر » . وقد هزأ جاليانى بخفة روح باريسية بزعم الفزيوقراطيين أن الأرض وحدها مصدر الثروة . وقال أن تحرير تجارة الغلال عن جميع

اللوائح والنظم معناه خراب بيوت مزارعى فرنسا ، وقد يجر إلى المجاعة فى أرض الوطن فى الوقت الذى يصدر فيه التجار الأذكياء الغلال إلى الدول الأخرى . وهذا ما حدث بالضبط فى ١٧٦٨ و١٧٧٥ .

ويروى أن لويس الخامس عشر سأل كزنيه ماذا يصنع إن كان ملكاً فأجاب « لاشىء » . « فمن يحكم إذن » ؟ « القوانين » — وكان الفزيوقراطى يقصد بذلك « القوانين » الملازمة لطبيعة الانسان والتى تتحكم فى العرض والطلب ووافق الملك على أن يجربها . ففى ١٧ سبتمبر ١٧٥٤ الغت وزارته جميع المكوس والقيود المفروضة على بيع الغلال — القمح ، والجاودار ، والذرة — ونقلها داخل المملكة . وفى ١٧٦٤ شملت هذه الحرية تصدير الغلال إلا إذا بلغت ثمنا مقررا . وهبط سعر الخبز حينا نتيجة تركه لعملية العرض والطلب ، ولكن محصولا رديئا فى ١٧٦٥ رفع سعره فوق السعر العادى بكثير جدا . وبلغ نقص الغلال مرحلة المجاعة فى ١٧٦٨ — ٦٩ ، فكان الفلاحون ينبشون عن الطعام فى زرائب الخنازير ، ويأكلون العشب والحشيش . وفى أبرشية تعد ٢٫٨٠٠ نسمة راح ٢٫٢٠٠ يستجدون الخبز . وشكا أفراد الشعب من أن المضاربين يصدرون الغلال بينما هم يواجهون المجاعة . واتهم الناقدون الحكومة بأنها تتكسب من عمليات هؤلاء المحتكرين فى « ميثاق المجاعة » وامتد رنين هذه النقمة المرة التى تعزف على ميثاق المجاعة . هذا الذى وقع عام ١٧٦١ ، خلال السنوات التالية ليتهم — حتى لويس السادس عشر الرحيم بالكسب من غلاء الخبز . وكان بعض الموظفين مذنبين فيما يبدو ، أما لويس الخامس عشر فلم يذنب . فلقد كلف بعض التجار بشراء الغلال فى السنين الطيبة ، وخزنها ، ثم عرضها فى السوق فى السنين العجاف ، ولكن حين بيعت هذه الغلال ارتفعت أسعارها ارتفاعا أعجز فقراء الشعب عن الشراء . واتخذت الحكومة تدابير متأخرة لعلاج الحالة ، فاستوردت القمح ووزعته على أفقر الأقاليم . وطالب الشعب برد هيمنة الدولة على تجارة الغلال ، وشارك البرلمان فى هذه المطالبة . فى هذة الأزمة نشر فولتير قصيدته المسماة الإنسان ذو الأربعين

ايكو . وأذعنت الحكومة ، وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٧٠ ألغيت المراسيم التى أباحت حرية الاتجار فى الغلال .

على أن أفكار الفزيوقراطيين شقت طريقها رغم هذه النكسة ، سواء فى فرنسا أو خارجها . وكان مرسوماً قد صدر فى ١٧٥٨ وقرر حرية التجارة فى الصوف ومنتجاته . وزار آدم سمث كزنية فى ١٧٦٥ ، وراعه منه « تواضعه وبساطته » ورسخ ميله إلى الحرية الاقتصادية . وكان رأيه « أن أكبر غلطة لهذا النظام . . . فى اعتباره طبقة الصناع ؛ ورجال الصناعة والتجارة طبقة عقيمة غير منتجة على الاطلاق » ، ولكنه خلص إلى « أن النظام ، بكل ما فيه من عيوب ، ربما كان أقرب ما نشر إلى الآن من الحقيقة حول موضوع الاقتصاد السياسى »(٤٥) . وقد انسجمت أفكار الفزيوقراطيين مع رغبة انجلترا — التى أصبحت الآن أعظم الأمم المصدرة فى خفض رسوم التصدير والاستيراد . ووجد هذا المذهب القائل بأن الثروة تنمو نموا أسرع فى ظل التحرر من القيود الحكومية على الإنتاج والتوزيع ، آذانا صاغية فى السويد تحت حكم شارل الثالث . وكان حب جفرسون للحكومة التى تمارس أقل قدر من الحكم ، من بعض النواحى ، صدى للمبادىء الفزيوقراطية . وقد أقر هنرى جورج بتأثير الفزيوقراطيين على دعوته لضريبة واحدة تفرض على العقار . واستهوت فلسفة حرية المشاريع والتجارة طبقة رجال الأعمال الأمريكيين ، وأعطت دفعة جديدة للتطور السريع الذى حظيت به الصناعة والثروة فى الولايات المتحدة . وفى فرنسا أتاح الفزيوقراطيون أساسا نظريا لتحرير الطبقات بالوسطى من العقبات الإقطاعية والقانونية التى عرقلة التجارة الداخلية والتقدم السياسى ، وقبل أن يموت كزنيه (١٦ ديسمبر ١٧٧٤) كان عزاء له أن يرى أحد أصدقائه بعين مراقباً للمالية ولو أفسح له فى الأجل خمسة عشر عاما أخر لشهد انتصار الكثير من الأفكار الفزيوقراطية فى الثورة الفرنسية .

٤ — ظهور طورجو ١٧٢٧ — ٧٤

أكان طورجو فزيوقراطيا ؟ إن خلفيته الفنية المنوعة تمنع كل تخصيص يلصق به ، فلقد ولد فى أسرة عريقة « من أصل طيب une bonne race كما قال لويس الخامس عشر — شغل أفرادها المناصب الهامة أجيالا عديدة بكل كفاية . وكان أبوه مستشارا للدولة وسر تجار باريس ، وهو أرفع منصب إدارى فى باريس ، وأخوه الأكبر امينا للالتماسات والمطالب فى برلمان باريس وعضوا بارزا فيه . وكانت النية توجيه طورجو (آن روبير — جاك) ، وهو الابن الأصغر إلى وظيفة القسوسية .

واجتاز بتفوق جميع الامتحانات فى كلية لوى — لجران ، وفى مدرسة سان — سولبيس اللاهوتية ؛ وفى الصوربون ، وأصبح « الأبيه دبروكور » وهو بعد فى التاسعة عشرة . وتعلم قراءة اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، والأسبانية ، والإيطالية ، والألمانية ، والانجليزية ، والكلام بثلاثة من هذه اللغات على الأقل بطلاقة . وفى ١٧٤٩ انتخب رئيسا للصوربون ، وبوصفه هذا ألقى محاضرات أثارت اثنتان منها ضجه خارج نطاق اللاهوت .

ففى يوليو ١٧٥٠ ألقى محاضرة على الصوربون باللاتينية فى « الفوائد التى أفاد بها توطيد المسيحية الجنس البشرى » ، وقال إنها أنقذت العالم القديم من سلطان الخرافة ، وصانت الكثير من الآداب والفنون والعلوم ، وقدمت للبشر المفهوم المحرر لقانون العدالة يسمو فوق كل ألوان التعصب والأنانية البشرية . « أفيستطيع الإنسان أن يطمع فى هذا من أى مصدر آخر غير الدين ؟ . . . إن الدين المسيحى دون غيره . . . . . هو الذى أخرج إلى النور حقوق الإنسان . »[٤٧] وفى هذه التقوى تسمع صدى الفلسفة ؛ وواضح أن الرئيس الشاب كان قد قرأ مونتسكيو وفولتير ، وتأثر لاهوته بعض الشىء بما قرأ .

وفى ديسمبر ١٧٥٠ ألقى محاضرة فى الصوربون عنوانها « جدول فلسفى بالتقدم المطرد للعقل البشرى » . وكان هذا التعبير عن ديانة التقدم الجديدة

انجازا رائعا من فتى فى الثالثة والعشرين . وقد سبق كونت — وربما حذا حذو فيكو — فقسم تاريخ العقل البشرى إلى ثلاث مراحل : مرحلة لاهوتية ، وأخرى ميتافيزيقية ، وثالثة علمية . قال : —

« قبل أن يفهم الناس العلاقة العلية بين الظواهر الطبيعية ، كان طبيعيا جداً أن يفترضوا أنها صادرة عن كائنات عاقلة ، غير مرئية ، شبيهة بهم . . . . فلما أدرك الفلاسفة سخف هذه الخرافات عن الأرباب دون أن يكتسبوا بعد بصراً بالتاريخ الطبيعى ، حاولوا تفسير أسباب الظواهر بعبارات تجريدية مثل الجواهر والقوى . ولم توضع الفروض — التى أمكن تطويرها بالرياضيات واثباتها بالتجربة ؛ بملاحظة التفاعل الميكانيكى المتبادل للاجسام — إلا فى فترة متأخرة »(٤٨) .

وقال الشاب الألمعى إن الحيوانات لا تعرف التقدم ، فهى تظل كما هى جيلا بعد جيل ، أما الإنسان فبفضل تعلمه تجميع المعرفة وتوصيلها يستطيع تحسين الأدوات التى يستخدمها فى التعامل مع بيئتـــه وفى اثراء حياته . مادام هذا التجميع والتوصيل للمعرفة والتكنولوجيا مستمراً فلامندوحة عن التقدم وأن عطلته أحياناً الكوارث الطبيعية أو تقلبات الدول . وليس التقدم متماثلا ، ولا هو عام ، فبعض الأمم يتقدم وبعضها يتقهقر ، وقد يركد الفن فى حين يتحرك العلم قدما ، ولكن الحركة فى جملتها حركة إلى الأمام . وفضلا عن هذه الآراء ، تنبأ طورجو بالثورة الأمريكية فقال « أن المستعمرات أشبه بالفاكهة التى تتشبث بالشجرة إلى أن تنضج ، وحين تغدو مستكفية بذاتها تفعل ما فعلته قرطاجة ، وما ستفعله أمريكا يوما ما (٤٩) » .

وقد خطط طورجو لكتابة تاريخ للحضارة وهو بعد فى الصوربون مستوحيا فى ذلك فكرة التقدم . ولم يبق من مشروعه هذا سوى مذكرات خطها لبعض فصول الكتاب ، ومنها يتبين أنه قصد أن يضمنه تاريخ اللغة ، والدين ، والعلم ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، كما يضمنه قيام الدول وسقوطها (٥٠) » . فلما ورث عن أبيه دخلا كافيا قرر أواخر عام ١٧٥٠ أن يترك الوظيفة الكنسيه والح عليه زميل من الآباء الدينيين فى

البقاء وأعدا اياه بالترقى السريع ، ولكن طورجو أجاب على ما روى ديون دنمو « لاأستطيع أن أفرض على نفس لبس قناع طوال حياتى [٥١] » .

ولم يكن قد رسم إلا لوظيفة كهنوتية صغيرة ، لذلك كان حرا فى الاشتغال بالسياسة . وفى يناير ١٧٥٢ أصبح نائبا عاما مناوبا ، وفى ديسمبر أصبح مستشارا فى البرلمان ، وفى ١٧٥٣ اشترى منصب « أمين الالتماسات والمطالب » ، الذى اشتهر فيه بالاجتهاد والعدل . وفى ١٧٥٥ — ٥٦ رافق جورنيه فى جولات تفتيشية فى الأقاليم ، وتعلم الاقتصاد الآن بالاتصال المباشر مع الزراع والتجار ، والصناع ، وعن طريق جورينه التى بكزنيه وعن طريق كزنيه التى بميرابو الأب ، ودبون دنمور ، وآدم سمث . ولم ينخرط قط فى زمرة المدرسة الفزيوقراطية ، ولكن ماله وقلمه كانا أهم سند لمجلة دبون المساماة التقاويم .

وفى غضون هذا (١٧٥١) استطاع بفضل ذكائه وسلوكه المهذب أن ياقى الترحيب فى صالونات مدام جوفران ومدام دجرافيته ، ومدام دوديفان والآنسة دلسبيناس . وهناك التقى بدالامبير ، وهلفتيوس ؛ ودولباخ ، وجريم ، ومن بين الثمرات المبكرة لهذه الاتصالات كتاب (١٧٥٣) من رسالتين « فى التسامح » . وكتب لموسوعة ديدرو مقالات فى الوجود ، والاشتقاق اللغوى ، والمهرجانات ، والأسواق ، ولكن حين أدانت الحكومة مشروع الموسوعة كف عن موافاتها بمقالاته . وخلال جولاته فى سويسره وفرنسا زار فولتير (١٧٦٠) وبدأ صداقة معه دامت حتى وفاة فولتير . وكتب حكيم فرنيه إلى دالامبير يقول : (قل أن رأيت طوال حياتى رجلا ألطف منه أو أوسع إطلاعا [٥٢]) . وأدعى جماعة الفلاسفة أنه واحـــد منهم ، وراودهم الأمل فى أن يؤثروا على الملك عن طريقه .

وفى ١٧٦٦ كتب لطالبين صينيين على وشك العودة إلى الصين مجملا للاقتصاد من مائة صفحة عنوانه « تأملات فى نشوء الثروة وتوزيعها » . فلما نشر فى مجلة « التقاويم » (١٧٦٩ — ٧٠) أشاد به الناس شرحاً من أكثر

شروح النظرية الفزيوقراطية إحكاماً وقوة . قال طورجو أن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وكل الطبقات فيما عدا زراع الأرض يعيشون على الفائض الذى ينتجه الزراع فضلا عن حاجاتهم ؛ وهذا الفائض يؤلف « صندوق أجور » تدفع منه أجور طبقة مهرة الصناع . ثم يسوق صيغة مبكرة لما أصبح فيما بعد يطلق عليه « قانون الأجور الحديدى » يقول :

إن أجر العامل يحدده مستوى معيشته بالمنافسة بين العمال . والعامل المجرد الذى لا يملك غير ذراعيه وجده ، لا يملك شيئاً إلا بقدر مايوفق فى بيع كده لغيره ، وصاحب العمل ينقده أقل مايستطيع من أجر ، وبما أنه يستطيع الاختيار من بين العديد من العمال ، فإنه يفضل أقلهم أجراً . ومن ثم يضطر العمال إلى خفض سعرهم فى المنافسة فيما بينهم ؛ وفى كل أنواع العمل لابد أن يحدث هذا ، وهو يحدث فعلا . وهو أن أجر العامل يحدده ماهو ضرورى لإعاشته »[٥٣] .

ويسترسل طورجو مؤكداً أهمية رأس المال . فلا بد أن يوفر شخص ما ، بمدخراته ، أدوات الإنتاج ومواده قبل أن يتسنى له استخدام العامل ، ولابد له من إعاشة العامل قبل أن يرد بيع الناتج له رأسماله . وإذا لم يكن هناك ضمان على الإطلاق لنجاح مشروع ما ، فيجب السماح بربح ليوازن خطر فقد رأس المال . « فحركة رأس المال هذه انطلاقاً ورجوعاً هى قوام دورة النقود ، تلك الدورة النافعة المثمرة التى تشيع الحياة فى جميع جهود المجتمع ، والتى شبهت بكل حق بدورة الدم فى الجسم الحيوانى »[٥٤] . ويجب عدم التدخل فى هذه الدورة ، وأن يسمح للأرباح والفائدة ، كما يسمح للأجور ، بأن تصل إلى مستواها الطبيعى حسب العرض والطلب . ويجب أن يعفى من الضرائب أصحاب رؤوس الأموال ، وأرباب المصانع ، والتجار ، والعمال ، فلا تفرض إلا على ملاك الأرض الذين سيستردون مادفعوه بتقاضى ثمن أغلى لمحاصيلهم . وينبغى ألا يفرض أى رسم على نقل أو بيع أى سلعة من سلع الاستهلاك .

فى هذه « التأملات » أرسى طورجو الأساس النظرى لرأسمالية القرن التاسع عشر قبل التنظيم الفعال للعمل . فهذا الرجل الذى كان من أرحم وأنبل

رجال زمانه لم يستطع أن يتطلع إلى مستقبل للعمال أفضل من أجور الكفاف . ومع ذلك أصبح هذا الرجل خادماً للشعب متفانياً فى عمله. ففى أغسطس ١٧٦١ عين ناظراً ملكياً لمديرية ليموج ، وهى من أفقر أقاليم فرنسا ، وقد قدر أن ٤٨ ٪ إلى ٥٠ ٪ من دخل الأرض فيها يضيع ضرائب للدولة وعشوراً للكنيسة . وكان فى فلاحى الإقليم كآبة وفى نبلائه فظاظة . كتب إلى فولتير يقول : « من سوء حظى أن أكون ناظراً ملكياً . وأقول من سوء حظى لأن السعادة فى هذا الزمان الممتلىء بالتناحر واللوم لا تتوافر إلا فى حياة الفلسفة بين الكتب والأصدقاء » . ورد عليه فولتير قائلا : « ستكسب أهل ليموج وجيوبهم ؛ وفى اعتقادى أن الناظر الملكى هو الشخص الوحيد الذى يمكنه إفادة الناس . ألا يستطيع إصلاح الطرق ، وزرع الحقول ، وتصريف المستنقعات ، وتشجيع الصناعات ؟ » .

وقد فعل طورجو هذا كله . فكافح بهمة طوال ثلاثة عشر عاماً ، اكتسب فيها محبة الشعب وكراهية النبلاء . فالتمس مراراً ، ودون جدوى ، من مجلس الدولة أن يخفض معدل الضريبة ، وحسن توزيع الضرائب ، ورفع المظالم ، ونظم خدمة موظفى الحكومة ، وحرر تجارة الغلال ، وشق ٤٥٠ ميلا من الطرق ؛ وكانت هذه الطرق جزءاً من برنامج إنشاء الطرق الذى ينتظم البلاد كلها (والذى بدأته الحكومة الفرنسية فى ١٧٣٢) والذى ندين له بالفضل فى هذه الطرق الجميلة ذات الأشجار الوارفة الظلال التى تنتشر اليوم فى ربوع فرنسا . وكانت الطرق قبل طورجو تشق بالسخرة ، فألغى السخرة فى ليموج ، ودفع أجر العمال من ضريبة عامة على الكافة . وأقنع الفلاحين بأن يزرعوا البطاطس غذاء للإنسان لا للحيوان فقط . وقد ظفر بإعجاب الناس جميعاً لما اتخذ من تدابير فعاله لإغاثة الشعب فى فترات المجاعة التى امتدت بين سنتى ١٧٦٨ ر ١٧٧٢ .

وفى ٢٠ يوليو ١٧٧٤ دعاه الملك الجديد للانضمام إلى الحكومة المركزية واغتبطت فرنسا كلها وتطلعت إليه منقذاً مرجواً للدولة المتداعية .

٥ — الشيوعيون

بينما كان الفزيوقراطيون يرسون الأساس النظرى للرأسمالية، كان موريللى ومابلى ، ولانجيه ، يشرحون الاشتراكية والشيوعية . فقد عزت الطبقات المتعلمة نفسها بمتع هذه الأرض بعد أن تخلت عن آمالها فى السماء : فتجاهل الأغنياء منهم المحظورات الدينية ، وأطلقوا العنان لرغباتهم فى الثروة والقوة والنساء والخمر والفن ؛ ووجد العامة عزاء فى عالم مثالى تقسم فيه خيرات الأرض بالقسط بين البسطاء والموهوبين ، وبين الضعفاء والأقوياء .

ولم تقم فى القرن الثامن عشر حركة اشتراكية ، ولاجماعة محددة مثل جماعة المسوين فى انجلترة كروميل ، أو يسوعى براجواى الشيوعيين . واقتصر الأمر على أفراد متفرقين أضافوا أصواتهم إلى صيحة متصاعدة ستصبح فى « جراكوس » بابوف عاملا فى الثورة الفرنسية . ونذكر القراء بأن الكاهن الشكوكى جان ميزلييه طالب فى كتابه « الميثاق » الذى أصدره عام ١٧٣٣ بمجتمع شيوعى يقسم فيه الناتج القومى بالتساوى بين الناس ويتزاوج فيه الرجال والنساء وينفصلون كما يشاءون ، ثم ألمع إلى أنه مما يعين فى هذا الباب أن يقتل بعض الملوك .[٥٥] وبعد سبعة أعوام من طبع هذه الدعوة ندد روسو فى «مقاله» الثانى (١٧٥٥) بالملكية الخاصة لأنها أس جميع شرور الحضارة ، ولكنه حتى فى صيحته تلك أنكر أى برنامج اشتراكى. وما وافى عام ١٧٦٢ حتى كان ابطال كتبه أفرادا ينعمون بالثروة .

وفى نفس العام الذى صدر فيه كتاب روسو « مقال فى أصل عدم المساواة » ظهر كتاب عنوانه « ناموس الطبيعة لراديكالى مغمور لانكاد نعرف عنه شيئاً غير أسمه الأخير ، إذا استثنينا كتبه ، وهو موريللى Morelly : ولا نخلط بينه وبين أندريه موريلليه Morellet الذى التقينا به مشاركاً فى تحرير الموسوعة . وقد بدأ موريللى بإيقاظ الأفهام بكتابه « رسالة فى فضائل ملاك عظيم » (١٧٥١) الذى صور ملكا شيوعياً . وفى ١٧٥٣ أضفى على حلمه الشاعرية بقصيدته « غرق الجزر الطافية ، أو الملحمة الملكية.» وهنا نرى الملك الطيب ، ربما بعد أن قرأ الكاتب مقال روسو الأول ، يعود بشعبه

إلى حياة بسيطة فطريه . وكان خير عرض للمثال الشيوعى وأكمله كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » (١٧٥٥ — ٦٠) وقد نسبه الكثيرون إلى ديدرو ، وصرح المركيز دارجانسون بأنه يفوق كتاب مونتسكو « روح الشرائع » (١٧٤٨) . وقد ذهب موريللى ، كما ذهب روسو ، إلى أن الإنسان خير بطبعه وإلى أن غرائزه الاجتماعية تحمله على السلوك الطيب ، وأن القوانين أفسدته بتقرير الملكية الخاصة وحمايتها . وامتدح المسيحية لميلها إلى الشيوعية ، وأسف لأن الكنيسة أقرت الملكية ، فإقامة الملكية الخاصة أورثت البشر « الغرور ، والحمق ، والكبرياء ، والجشع ، واللؤم ، والنفاق ، والشر .. وكل شىء شرير ينتهى إلى هذا العنصر الخفى المؤذى ، وأعنى به شهوة التملك [٥٦] » . ثم ينتهى السفسطائيون إلى أن طبيعة البشر تجعل الشيوعية ضربا من المحال ، فى حين إن الذى حدث فى التتابع الواقعى للأحداث هو أن انتهاك الشيوعية هو الذى أفسد الفضائل الفطرية للإنسان . ولولا الجشع والأنانية ، والمزاحمات ، والأحقاد التى ولدتها الملكية الخاصه لعاش الناس معا فى إخوة مسالمة متعاونة .

ولا بد للبدء فى إعادة البناء من إزالة العوائق من طريق التعايش الحر فى الأخلاق والسياسه « فتعطى كامل الحرية للعقلاء من الناس فى مهاجمة الأخطاء والأهواء التى تدعم نزعة التملك » وينبغى أن يؤخذ الأطفال من آبائهم وهم فى السادسة وينشأوا تنشئة مشتركة بواسطة الدولة حتى يبلغوا السادسة عشرة ، وعندها يعادون إلى ذويهم بعد أن تكون المدارس قد دربتهم على التفكير بلغة الصالح العام لا التملك الشخصى . وينبغى ألا يسمح بالملكية الخاصة إلا فى أخص خصائص الحاجات الشخصية « فتجمع كل النواتج فى مخازن عامة لتوزع على كل المواطنين لسد حاجات الحياة » [٥٧] . ويجب أن يعمل كل قادر على العمل ، فيساعد فى المزارع من الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين . ويجب ألا يكون هناك طبقة عاطلة ، ولكن لكل فرد الحرية فى أن يعتزل فى الأربعين على أن تدير الدولة رعايته فى شيخوخته . وتقسم الأمة إلى مدن حدائق لها مركز للبيع والشراء وميدان عام . ويحكم

كل جماعة مجلس من الآباء الذين تزيد أعمارهم على الخمسين ، وتنتخب هذه المجالس مجلس شيوخ أعلى يحكمها كلها وينسق فيما بينها .

ولعل موريللى يخس قدر النزعة الفرديه الفطرية فى البشر ؛ وقوةغريزة الاقتناء ، ومقاومة التعطش للحرية وللاستبداد اللازم للابقاء على حاله من مساواة غير طبيعية ومع ذلك كان تأثيره كبيراً . فصرح بابيف بأنه تشرب شيوعيته من كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » والراجح أن شارل فورييه استمد من نفس المصدر خطة المستعمرات التعاونيه (الكتائبية phalansteries) (١٨٠٨) التى أفضت بدورها إلى تجارب شيوعية من أمثال مزرعة بروك (١٨٤١) . وفى « ناموس » موريللى نلتقى بذلك المبدأ الشهير الذى انحدر ليلهم الثورة الروسية وينكبها ، ونعنى به « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجاته » .(٥٨)

أما جماعة الفلاسفة فقد رفضوا بوجه عام نظام موريللى باعتباره غير عملى ، وقبلو الملكية الخاصة نتيجة لا مناص منها للطبيعة البشرية . ولكن فى ١٧٦٣ وجد موريللى حليفاً قوياً فى سيمون — هنرى لانجيه . وهو محام هاجم القانون والملكية جميعاً . فبعد أن شطب اسم لانجيه من جدول المحامين نشر (١٧٧٧ — ٩٢) « حوليات سياسية » وهى مجلة اطلق فيها وابلا من النيران على الشرور الاجتماعية . فالقانون فى رأيه قد أصبح أداة لتحليل وصيانة المقتنيات التى كسبت أصلا بالقهر أو الغش :

« إن القوانين يقصد بها أولا تأمين الملكية . وبما أنه يمكن الآن أن يؤخذ من الغنى أكثر مما يؤخذ من الفقير ، فمن الواضح أنها ضمان يعطى الأغنياء ضد الفقراء . وقد يعسر علينا أن نصدق — وإن كان هذا يمكن بيانه بجلاء — أن القوانين من بعض نواحيها مؤامرة على الكثرة العظمى من البشر (٥٩).

ويترتب على ذلك أن حربا طبقية لا مندوحة عنها تستعر بين أصحاب الملكية أو رأس المال ، وبين العمال الذين لا بد لهم من بيع كدهم لأرباب العمل

الملاك ، منافسين فى ذلك بعضهم بعضا ، وقد احتقر لانجيه دعاوى الفزيوقراطين بأن تحرير الاقتصاد من سيطرة الدولة سيجلب الرخاء تلقائياً ، لأنه على النقيض من ذلك يعجل بتركز الثروة ، فترتفع الأسعار ، وتتخلف الأجور . وسيطرة الأغنياء على الأسعار من شأنها الإبقاء على عبودية الأجير حتى بعد « إلغاء » الرق قانوناً ، « فكل ما جنوه (أى العبيد السابقون) هو العذاب الدائم من خوف الموت جوعا ، وهو خطب أعفى منه على الأقل أسلافهم ممن تردوا فى هذا الدرك الأسفل للانسانية » (٦٠) . فقد كان العبيد يسكنون ويطعمون على مدار السنة ، أما فى الاقتصاد غير المقيد فإن رب العمل حر فى أن يقذف بالعمال فى مهاوى التسول إذا لم يستطع جنى الربح من ورائهم ، ثم يجعل التسول جريمه . وفى رأى لانجيه أنه لا دواء لهذا كله الا الثورة الشيوعية . على أنه لم يوص بها لجيله ، لأنها ستفضى على الأرجح إلى الفوضى لا إلى العدالة ؛ ولكنه أحس بأن الأحوال المواتيه لثورة كهذا آخذه فى التشكل السريع ؛ يقول :

« لم يحدث قط إن كان الفقر أعم ولا أشد فتكا بالطبقة التى تبلى به ، ولعل أوربا لم تكن فى يوم من الأيام أقرب منها اليوم إلى الانقلاب التام وسط هذا الرخاء الظاهر ... ولقد بلغنا بالضبط ، بطريق عكسى تماماً ، تلك النقطة التى بلغتها إيطاليا حين اغرقتها حرب العبيد (التى قادها سبارتاكوس) فى حمام من الدم ، وحملت النار والتقتيل إلى أبواب عاصمة الدنيا ذاتها » (٦٠).

وقد نشبت الثورة وهو حى بعد رغم نصيحته وقذفت به إلى الحلوتين (١٧٩٤) .

وأما الأبيه جابرييل بونو دمايلى نو فقد احتفظ برأسه لأنه مات قبل الثورة بأربع سنوات وكان سليل أسرة كريمة فى جرينوبل ، وأخذ أخوته جان بونو دمايلى الذى عاش روسو معه فى ١٧٤٠ ، والآخر كوندياك الذى أثار ضجة بأبحاثه السيكولوجية . ثم قريب مشهور آخر هو الكردينال دتنسان ، حاول أن يجعل من جابريل قسيسا ، ولكنه لم يجاوز مراتب الكهانة الصغرى ،

واختلف إلى صالون مدام تنسان فى باريس ، ثم استسلم لإغراء الفلسفة . وفى ١٧٤٨ تشاجر مع الكردينال ، وانصرف إلى الدرس فى خلوته ، وبعدها كانت أهم أحداث حياته هى كتبه ، وكلها ذاع صيته فى الماضى .

وقد أفاد من الأعوام السبعة التى قضاها فى باريس ولمرسای علماً بالسياسة ، والعلاقات الدولية ؛ والطبيعه البشرية . وأسفر هذا كله عن مزيج فذ جمع بين التطلعات الاشتراكية والشكوك المتشائمة . وقد أصر مايلى على أن المعايير الخلقية التى تطبق على الأفراد يجب أن تطبق على سياسة الدول (وهو عكس ما قال به مكيافللى) ، ولكنه أدرك أن هذا يتطلب نظاماً من القانون الدولى يمكن فرضه . وكان كفولتير وموريللى موحدا بغير مسيحية ، ولكنه آمن بأنه لا سبيل إلى صيانة الفضيلة إلا بديانة قوامها العقاب والثواب فوق الطبيعيين ، لأن أكثر الناس « قضى عليهم بطفولة العقل الدائمة »[٦٢] . وقد آثر اخلاقيات الرواقيين على أخلاقيات المسيح ، والجمهوريات الإغريقية على الملكيات الحديثة . وأتفق مع موريللى على أن رزائل البشر مبعثها الملكية لا الطبيعة ؛ فهى « أس جميع البلايا التى نكب بها المجتمع[٦٣] » . وقد تربعت شهوة الغنى على عرش متضخم فى قلب الإنسان ، فخنقت كل ما فيه من حب العدل والانصاف[٦٤] » ، وكلما ازدادت التفرقه بين حظوظ البشر تأججت هـذه الشهوة . فالحسد ، والطمع ، والفوارق الطبقية ، تسمم ما فى طبيعة البشر من مودة فطرية . فيستكثر الأغنياء من أسباب الترف والبذخ ، ويتردى الفقراء فى مهاوى الذل والهوان . فأى خير فى الحرية السياسية مادامت العبودية الاقتصادية قائمة ؟ « ن الحرية التى يحسب كل أوربى أنه يستمتع بها ليست سوى حريته فى أن يترك عبوديته لسيد ويسلم نفسه إلى سيد أخر[٦٥] » .

وكم يكون البشر اسعد وأهنأ إذا اختفت الفاظ « هذا ملكى » « وذلك ملكك » . وزعم مايلى أن الهنود الحمر كانوا أهنأ بالا فى ظـل شيوعية اليسوعيين فى برجواى من فرنسيي جيله ، وأن السويديين والسويسريين فى ذلك الجيل ، الذين تخلوا عن الجرى وراء المجد والثراء قانعين برخاء معتدل ، هم أسعد حالا من الإنجليز الذين يغزون المستعمرات والتجارة . وذهب إلى

أن الأخلاق فى السويد تحظى بمقام أعظم من الشهرة ، وأن القناعة أثمن فى نظار القوم من الثراء الطائل[٦٦] . أن الذين يملكون الحرية الحقيقية هم أولئك الذين لا تهفو نفوسهم للغنى . ولن تتوافر السعادة فى مجتمع كذلك الذى يدعو إليه الفزيوقراطيون ، لأن الناس ستثيرهم على الدوام الرغبة فى أن يتساووا فى مقتنياتهم مع من بفوقونهم ثراء .

وهكذا خلص مابلى إلى أن الشيوعية هى النظام الاجتماعى الوحيد الذى يدعم الفضيلة والسعادة . « أقيموا أشتراكية السلع ، وعندها لن يكون أيسر من إقرار المساواة بين أحوال العيش ، وارساء رفاهية الإنسان على هذا الأساس المزدوج . » [٦٧]ولكن كيف السبيل إلى إقامة شيوعية كهذه والناس على مثل هذا الفساد ؟ هنا يرفع الشكوكى فى مابلى رأسه ، ويسلم فى قنوط بأنه ليس فى قدرة أى قوة بشرية اليوم أن تعيد إقرار المساواة دون أن تحدث من ضروب الخلل والأضطراب ما يفوق تلك التى تحاول تفاديها[٦٨] » . فالديمقراطية رائعة نظريا ، أما عمليا فهى تفشل بسبب جهل الجماهير وحبها للاقتناء[٦٩] . وقصارى ما نستطيعه هو أن نعرض الشيوعية مثلا أعلى ينبغى أن تسعى إليه الحضارة شيئاً فشيئا فى حذر ، وتغير ببطء عادات الإنسان الحديث من التنافس إلى التعاون . ويجب ألا يكون هدفنا الأستكثار من الثروة ، ولا حتى الأستكثار من السعادة ، بل إنماء الفضيلة ، فالفضيلة وحدها هى مجلبة السعادة . وأول خطوة فى سبيل الحصول على حكومة أفضل هى دعوة مجلس طبقات الأمة ، الذى ينبغى أن يضع دستورا يخول السلطة العليا لجمعية تشريعية (وهذا ما تم . فى ١٧٨٩ — ٩١) . وينبغى تحديد مساحة الأطيان التى يتملكها الفرد ، وتقسيم الضياع الواسعة للاستكثار من ملكية الفلاحين للأرض ، ووضع القيود الصارمة على إرث الثروة ، وإلغاء « الفنون عديمة الجدوى » كالتصوير والنحت .

وقد تبنت الثورة الفرنسية كثيراً من هذه المقترحات . ونشرت مجموعة أعمال مابلى فى ١٧٨٩ ، ثم فى ١٧٩٢ ، ثم فى ١٧٩٣ ، ورتب كتاب نشر عقب الثورة هلفتيوس ، ومابلى ، وروسو ، وفولتير ، وفرانكلن ، بهذا الترتيب ، بوصفهم أكبر ملهمى ذلك الحدث ، وقديسى الدين الجديد الحقيقيين[٧٠] .

٦ — الملك

أما لويس الخامس عشر فقد أبتسم سخرية من هؤلاء الشيوعيين — على قدر علمه بهم — لأنهم قوم حالمون لا وزن لهم ، وراح يتنقل فى ود من فراش إلى فراش . وأما البلاط فواصل قماره المستهتر وزهوه المسرف ، من ذلك أن أمير سوبيز أنفق ٢٠٠,٠٠٠ جنيه على توفير أسباب اللهو للملك فى يوم واحد ، وكان كل إنتقال لجلالته إلى أحد مقاره الريفيه يكلف دافعى الضرائب ١٠٠,٠٠٠ جنيه . وكان خمسون من كبار القوم يملكون « أوتيلات » أى قصوراً فى فرساى أو باريس ؛ وكان عشرة آلاف خادم يبذلون العرق فى كبرياء وفخر لتلبية حاجات النبلاء ؛ والأحبار ، والخليلات ؛ والأسرة المالكة واشباع غرورهم . وكان للويس نفسه ثلاثة آلاف جواد و ٢١٧ مركبة ، و ١٥٠ غلام يرتدون حللا من المخمل والذهب ، وثلاثون طبيبا يقصدونه وينظفون أمعاءه ويسممونة . وقد أنفق البيت المالك فى سنة واحدة (سنة ١٧٥١) ٦٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو ما يقرب من ربع إيراد الحكومة[٧١] وشكا الشعب ولكن أكثر شكاوا هم كانت غفلا من التوقيع ، وفى كل عام كشفت عشرات النشرات والملصقات ، وأغانى الهجو ، عن كراهية الملك . وقد جاء فى أحد الكتيبات « إذا كنت يا لويس مرة موضع حبنا فما ذلك إلا لأن رذائلك كانت لا تزال مجهولة لنا . وفى هذه المملكة ، التى نضبت من أهلها بسببك ، وأسلمت نهبا « للمشعوذين الذين يحكمون معك ، إن بقى فرنسيون ، فانما يبقون ليكرهوك[٧٢] » .

فكيف انقاب لويس المحبوب ملكا محتقراً مهانا ؟ أننا لو صرفنا النظر عن إسرافه ، وإهماله ، وفواحشه ، لم نجده فى ذاته بالسوء الذى صوره به التاريخ الحقود . كان فى بنيته رجلا وسيما ، طويلا ، قويا ، قادرا على الصيد طوال المساء واللهو مع النساء فى الليل . أفسده معلموه ، فأفهمه فيلرو أن فرنسا كلها ملكه بالوراثة والحق الألهى . وقد خفف من كبرياء الملكية وشوشها الظل الذى خلفه لويس الرابع عشر وتقاليده ، إذ ألح على الملك الحدث إلحاح الهاجس ، وأورثه الجبن ، إحساسه بالعجز عن الأرتفاع

إلى ذلك المستوى الجليل من الفخامة وقوة الأرادة ؛ فأصبح عاجزا عن البت فى الأمور ، وترك مهمة إتخاذ القرارات لوزرائه مغتبطا . وأتاحت له قراءاته وهو غلام ، وذاكرته القوية ، بعض الإلمام بالتاريخ ، واكتسب مع الوقت معرفة لا يستهان بها بالشئون الأوربية : واحتفظ سنوات كثيرة بمراسلاته الدبلوماسية السرية . كان ذكيا فى تراخ وفتور ، يحكم حكما شديدا ولا رحمة فيه على أخلاق من أحاط به من الرجال والنساء ؛ فى وسعه أن يجارى خير العقول فى بلاطه حديثا ونكته ، ولكن يبدو أنه قبل حتى أسخف العقائد اللاهوتية التى تبثها فيه فلورى وهو صبى . وبات الدين عنده أشبه بالحمى المتقطعة إذ راح يتذبذب بين التقوى والفجور . فكان يعانى من خوف الموت والجحيم ، ولكنه يقامر على غفران خطاياه وهــو فى النزع الأخير . وقد أوقف اضطهاد الجانسنيين ، وإذ نستحضر تاريخ تلك الحقبة نتبين أن جماعة الفلاسفة استمتعوا فى حكمه بين الحين والحين بقدر كبير من التسامح .

كان يقسو أحيانا ، ولكنه فى الأكثر رحيم . تعلمت بومبادور ودوربارى أن تحباه من أجل شخصه كما أحبتاه من أجل السلطة التى منحهما أياها . وكانت برودة عاطفته وتحفظه جزءا من حيائه وانعدام ثقته بنفسه ، ولكن وراء ذلك التحفظ عناصر من الحنان والرقة أعرب عنها خاصة فى محبته لبناته ، وقد أحببنه أباً منحهن كل شىء إلا القدوة الحسنة . وكان فى سلوكه عموما تلطف وكياسة ولكنه كان قاسى الفؤاد احينا ؛ ويتكلم فى هدوء مفرط على امراض إفراد حاشيته أو موتهم الوشيك . وقد نسى تماما أن يسلك مسلك الرجل المهذب وهو يقيل فجأة دارجانسون ، وموريا ، وشوازيل ؛ ولكن هذا أيضاً ربما كان نتيجة عدم ثقته بنفسه . فقد شق عليه أن يقول لا لإنسان فى وجهه . ومع ذلك كان قادرا على أن يواجه الخطر بشجاعة كما كان يفعل فى الصيد أو فى فونتنوا .

وكان على ظهوره بمظهر الوقار أمام الناس لطيفا حلو العشرة بين أخصائه ، يعد لهم القهوة بيديه الكريمتين . وقد راعى قواعد السلوك المعقدة التى أرساها لويس الربع عشر للملكية ولكنه أنكر الشكلية التى فرضتها

على حياته . وكثيراً ما كان يستيقظ قبل تقليد « الاستيقاظ » المقرر رسميا ويوقد ناره بنفسه لكيلا يوقظ خدمه ، ويغلب عليه أن يلبث فى فراشه حتى الحادية عشرة . أما فى الليل ، فإنه بعد أن يحتفل رسميا بذهابه إلى فراشه ، قد يتسلل ليلهو بمحظيته أو حتى ليتفقد مدينة فرساى متنكرا وكان يلوذ بالصيد من مراسم البلاط المنكلفة ، وفى الأيام التى لا يهرب فيها للصيد كانت بطانته تقول « أن الملك لا يعمل اليوم شيئاً[٧٣] » . وكان يعرف عن كلاب صيده أكثر مما يعرف عن وزرائه ؛ إذ رأى أن فى قدرة وزرائه أن يعنوا بشئون الدولة خيراً منه ، فلما نبه إلى أن فرنسا فى طريقها إلى الأفلاس والثورة ؛ عزى نفسه بهذه الفكرة « ستسير الأمور على هذه الوتيرة حتى ينتهى أجلى » .

أما من الناحية الجنسية فقد كان وحشا فاسقاً . ولقد تغتفر له إتخاذه المحظية التى إتخذها حين ضاقت الملكة ذرعا بفحولته ، وقد نفهم اقتنائه ببومبادور ؛ وحساسيته لجمال المرأة وظرفها وحيويتها المشرقة ، ولكن قل فى تاريخ الملوك ما أشبه حقارة تنقله بين الفتيات اللاتى إعددن لفراشه فى البارك أوسير واحدة تلو أخرى . وكان مجىء دوبارى بالقياس إلى هذا رجوعا إلى الحالة السوية .

٧ — دوبارى

بدأت حياتها فى قرية من قرى شمبانيا تدعى فوكولير حوالى ١٧٤٣ باسم مارى — جان بيكى ، أبنة الآنسة آن بيكى ، التى يبدو أنها لم تمط اللثام قط عن شخصية أبى الفتاه . ومثل هذه الخفايا كانت مألوفة بين الطبقات الدنيا . وفى ١٧٤٨ أنتقلت آن إلى باريس وأصبحت طاهية للمسيو دومونسيه الذى رتب إلحاق جان ، وهى فى السابعة ، تلميذة داخلية بدير سانت — آن للراهبات . هناك مكثت الفتاة الجميلة تسع سنوات ، يلوح أنها لم تعوزها فيها السعادة ؛ وقد احتفظت بذكريات حلوة عن هذا الدير المنظم ، وتلقت فيه تعليما فى القراءة والكتابة والتطريز ، واحتفظت طوال حياتها بتدين بسيط لا يتشكك ، وباجلال للراهبات والقساوسة ، وكان إيواؤها للقساوسة المطاردين فى الثورة من العوامل التى أفضت بها إلى الجيلوتين[٧٥] :

فلما خرجت من مدرسة الدير إتخذات إسم صديق أمها الحديد ، المسيورانسون ، لقباً لها وأرسلت إلى حلاق لتتعلم فنه ؛ ولكن هذا الفن أشتمل على الإغواء ، وجان — الجميلة جمالا لا يقاوم — لم تعرف كيف تقاوم . ونقلتها أمها وصيفة لمدام دلاجارد ، ولكن ضيوف هذه السيدة غالوا فى الأهتمام بجان ، فما لبثت أن طردت . واجتذب دكان القبعات الذى التحقت به باثمة عددا غير عادى من الزبائن الذكور . فاصبحت خليلة اختص بها سلسلة من الفجرة . وفى ١٧٦٣ تلقاها جان دوبارى ؛ وهو مقامر كان يجلب النساء للفاسقين من النبلاء . وخدمت هذا القواد — متخذة اسم جان دفوبرنية الأنيق — خمس سنوات مضيفة فى حفلاته ، وأضافت شيئاً من التهذيب والصقل لمفاتنها . ثم رأى دوبارى أنه هو أيضاً ، كمدام بواسون ، قد أكتشف « طبقاً شهياً للملك » .

وبيان ذلك أن الملك الطيب ستانسلاس مات عام ١٧٦٦ فى اللورين فأصبح بذلك اقليما من أقاليم فرنسا . وانهارت صحة ابنته مارى (ملكة فرنسا التقية المتواضعة) انهيارا سريعا بعد موته لأن حبهما المتبادل كان سندا لها فى حياة العبودية الطويلة التى عاشتها مع زوج خائن العهود الزوجية ، فى بيئة غريبة . وفى ٢٤ يونيو ١٧٦٨ لفظت أنفاسها الأخيرة فبكاها الجميع حتى الملك . وقد عال بناته بالأمل فى أنه لن يتخذ المزيد من الخليلات . ولكن فى شهر يوليو رأى جان التى كانت سائرة بالصدفة على غير هدى فى قصر فرساى فى براءة كبراءة لايومبادور وهى راكبة فى أرض الصيد . « سينار » قبل أربع وعشرين سنة .

وراعه فيها جمالها الشهوانى ومرحها وطبعها اللعوب . فهاهنا امرأة تستطيع أن توفر له اللهو من جديد وتدفىء قلبه البارد الحزين ، فأرسل إليها تابعه لبيل . ولم يتردد (الكونت) دوبارى فى التفريط فيها لقاء مقابل ملكى . ورغبة فى تهدئة المظاهر أصر لويس على أن تتزوج الفتاة . فزوجها الكونت بسرعة لأخيه جيوم ، الكونت دوبارى الحقيقى ، المفتقر ، بعد أن استقدمه لهذا الغرض من لفنياك بغسفونية . وحيته تحية الوداع

عقب حفل الزفاف مباشرة (أول سبتمبر ١٧٦٨) ، ولم تقع عليه عيناها بعد ذلك قط . وكوفىء جيوم بمعاش قدره ٥٠٠ر٥ جنيه ، فاتخذ له خليلة واصطحبها إلى لفنياك حيث عاشرها خمسة وعشرين عاما ، ثم تزوجها حين علم أن زوجته أعدمت بالجلوتين .

ولحقت جان ، التى اتخذت الآن اسم الكونتس دوبارى ، بالملك سرا فى كومبين ، ثم علانية فى فونتنيلو . وسأل الدوق ريشليو لويس ماذا يرى فى هذه اللعبة الجديدة ، فأجاب جلالته «لا أكثر من أنها تنسينى اننى سأبلغ الستين بعد قليل .[٧٦] » وريعت بطانته . فقد كان فى استطاعتهم أن يفهموا فى غير غباء حاجة الملك إلى خليلة ، أما أن يأخذ امرأة عرفها العديدون منهم مومسا ، ثم يرفعها إلى مقام يعلو على المركيزات والدوقات !! وكان شوازيل قد منى نفسه بأن يقدم أخته للملك (خليلة تحمل لقبا) ، فراحت هذه النبيلة المرفوضة تحرض أخاها — الذى كان الحذر من طبعه — على العداء الصريح لهذه الدعية الجميلة ، ولم تغتفر له دوبارى فعلته قط .

وسرعان ما تقلبت الخليلة الجديدة فى الذهب والجواهر . وخلع عليها الملك معاشا قدره ١٣٠ر٠٠٠ فرنك بالاضافة إلى راتب سنوى قدره ١٥٠ر٠٠٠ فرنك ، تفرض على مدينة باريس وولاية برجندية . وهرع الجواهريون إلى تزويدها بالخواتم والعقود والأساور والتيجان وغيرها من أسباب الزينة المتألقة التى اقتضوا الملك ثمنا لها ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ فرنك فى أربع سنوات . وبلغت جملة ما تكلفته الخزانة فى تلك السنوات الأربع ٦ر٠٠٠ر٣٧٥ جنيها[٧٧] . وسمع أهل باريس بجمالها المتألق ، وحزنوا لأن بومبادور جديدة اقبلت لتبتلع ضرائبهم .

وفى ٢٢ ابريل ١٧٦٩ قدمت رسميا فى البلاط ، وطلعت على أفراده فى شعلة متوهجه من الحلى والجواهر وهى تتكىء على ذراع ريشليو . وأعجب الرجال بمفاتنها ، أما النساء فاستقبلنها بما جرؤن عليه من فتور . واحتملت هذه الاهانات فى هدوء ، وأرضت بعض الحاشية بتواضع سلوكها والضحك الرخيم الذى كانت تشرح به صدر الملك . ولم تبد أى ضغينة حتى لأعدائها (باستثناء شوازيل) ، واكتسبت الرضى باستمالة

جلالته لاصدار قرارات عفوا أكثر مما كان يصدر من قبل . وشيئاً فشيئاً جمعت حولها رجالا ونساء من النبلاء الذين تشفعوا بها عند الملك وقد حرصت على رعاية أقاربها كما فعلت يومبادور من قبل ، فاشترت أملاكا ولقبا لأمها ، وحصلت على معاشات تحالتها وأبناء خالتها ، ثم دفعت ديون جان دوبارى ؛ وخلفت عليه مالا كثيرا ، واشترت له فيلا أنيقة فى ليل — جوردان . وظفرت لنفسها من الملك بالشاتو لوفسيين الذى كان أمير لامبال وأميرتها يشغلانه ، على حافة الحديقة الملكية فى مارلى ؛ واستخدمت أعظم معمارى الجيل ، جاك — انج جابرييل ، ليعيد بناء القصر على هواها ، وصانع الأثاث المدقق بيير جوتيير ليزخرفه بأثاث وتحف فنيه بلغ ثمنها ٧٥٦,٠٠٠ جنيه .

وكانت تعوزها خلفية التعليم والاختلاط التى جعلت من يومبادور راعية مختارة ذواقة للأدب والفلسفة والفن . بيد أنها جمعت عددا كبيرا من الكتب الأنيقة التجليد ، من هومر إلى كتب الفحش ، ومن تأملات بسكال الورعة إلى رسوم فراجونار البذيئة . وفى ١٧٧٣ أرسلت تحيتها وصورتها إلى فولتير مع قبلة على كل وجنة وأجاب بأبيات فيها ذكاء شعره المعهود :

« ماذا ! أقبلتان فى ختام حياتى ! أى جواز تتفضلين بأن ترسليه لى ! قبلتان ! إن واحدة تكفى وزيادة ، أى إيجيريا المعبودة ، لأننى سأموت فرحا فى القبلة الأولى[٧٨] » .

وطلبت إلى لويس الخامس عشر أن يسمح لفولتير بالعودة إلى باريس فرفض ، وكان عليها أن تقنع بشراء تشكيلة من الساعات من فرنيه وفى ١٧٧٨ . حين أتى الاقطاعى العجوز إلى باريس ليموت ، كانت من بين الكثيرين الذين صعدوا سلم بيته فى شارع بون لتقدم له احترامها . وقد فتن بزيارتها ، وختمها بالنهوض من فراشة ليصحبها إلى الباب . وفى تزولها التقت بجاك بيير بريسو ، رجل الثورة المستقبل ، وكان يرجو أن يقدم إلى فولتير مخطوطة فى القانون الجنائى ، وحاول الدخول إليه بالأمس ففشل ، وكان يعيد الكرة الآن ، فقادته عودا إلى باب فولتير

ورتبت له أن يدخل . وقد استعاد فى مذكراته « ابتسامتها المفعمة دفئا ولطفا[٧٩] » .

لقد كانت طيبة القلب سمحة النفس ما فى ذلك ريب . احتملت دون رد عداء الأسرة المالكة ورفض مارى انطوانيت التحدث اليها . وكان شوازيل دون غيره هو الذى لم تستطع الصفح عنه لأنه لم ين عن محاولة طردها من البلاط . وسرعان ما وضح أن واحداً منهما لابد أن يرحل .

٨ — شوازيل

كان سليل أسرة لورينية عريقة ، وأصبح فى مطلع حياته الكونت دستانفيل ، وقد ظفر بالتشريف لبلائه فى حرب الوراثة النمساوية . وفى ١٧٥٠ حين كان فى الحادية والثلاثين استعاد لأسرته ثراءها بزواجه من وارثة غنيه . وسرعان ما ظفر بمكان مرموق فى البلاط بفضل ذهنه الوقاد وذكائه المرح ، ولكنه عطل رقيه بمعارضته لبومبادور . وفى ١٧٥٢ نقل ولاءه فاكتسب عرفانها بصنيعه حين أفشى لها سر مؤامرة دبرت لطردها . فحصلت له على وظيفة سفير فى روما ثم فينا . وفى ١٧٥٨ دعى إلى باريس ليحل محل برنيس وزيرا للخارجية ، ورقى دوقا ونبيلا من نبلاء فرنسا . وفى ١٧٦١ نقل وزارته هذه لأخيه سبزار ، ولكنه واصل توجيه السياسة الخارجية ، أما هو فاتخذ لنفسة وزارتى الحربية والبحرية . وتعاظم سلطانه حتى كان يتغلب أحيانا على الملك ويخيفه[٨٠] » . وقد أعاد بناء الجيش ، والبحرية ، وقلل من المضاربة والفساد فى المدفوعات الحربية وفى تموين الجيش ، وأعاد النظام إلى صفوف الجيش ، وأحل ذوى الكفايات من غير حملة الألقاب محل حملتها ممن شاخوا فى سلاح الضباط . وطور المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية ، وأضاف كورسيكا إلى ممتلكات التاج الفرنسى ، وتعاطف مع جماعة الفلاسفة ، ودافع عن الموسوعة ، وأيد طرد اليسوعيين (١٧٦٤) وأغضى عن إعادة تنظيم الهيجونوت فى فرنسا . وقد حمى أمن فواتيز فى فرنيه ، وأيد حملته دفاعا عن أسرة كالاس ، وظفر من ديدرو بمديح قال فيه « أى شوازيل العظيم ، انك لتسهر على مقدرات الوطن[٨١] » .

ويمكن القول على الجملة إن سياساته أنقذت فرنسا إلى حد معتدل من الكارثة التى جرها إليها الحلف النمساوى المنحوس . فخفض الإعانات المالية التى كانت تدفعها عادة إلى السويد ، وسويسرة ، والدنموك، وبعض الأمراء الألمان . وشجع الجهود التى بذلها شارل الثالث ليدخل أسبانيا إلى حظيرة القرن الثامن عشر ، وحاول أن يعزز قوة فرنسا وأسبانيا بميثاق الأسرة (١٧٦١) الذى أبرمه الملكان البوربونيان . وقد تعثرت الخطة ، ولكن شوازيل فاوض انجلترة على صلح بشروط تفضل كثيراً ما كان الموقف العسكرى يبرره . وقد تنبأ بثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا ، ودعم مركز فرنسا فى سان دومنيج والمارتنيك ، وجواديلوب ، وغيانا الفرنسية ، أملا فى إرساء سلطان استعمارى جديد يعوض فرنسا عن فقد كندا . وقد تبنى النابليونان هـــذه السياسة فى ١٨٠٣ و ١٨٦٣ .

ويجب أن نضع مقابل هذه المنجزات إخفاقه فى وقف التغلغل الروسى فى بولندة وإصراره على قيادة فرنسا وأسبانيا فى أعمال عدائية مجددة مع انجلترة . وكان لويس قد سئم الحرب ، فاستمع بذهن مفتوح لأولئك الذين يعملون على إسقاط شوازيل . وقد فتن الوزير الأريب الكثيرين بمجاملته للبلاط ، واستضافته المسرفة للأصدقاء ، وسعة حيلته وجهاده فى خدمة فرنسا ، ولكنه قوى المنافسات فأحالها عداوات بنقده الصريح وحديثه المستهتر . وأتاحت معارضته لدوبارى معارضة لا هوادة فيها لإعدائه سبيلا إلى أذن الملك . وأيد ريشيلو — الذى لا يكل — دوبارى ، وكان ابن أخيه الدوق ديجيون يتحرق شوقاً للحلول محل شوازيل رئيساً للحكومة . ونزلت الأسرة المالكة التى أنكرت نشاط شوازيل ضد الشيوعين إلى استعمال الخليلة المزدراة أداة لعزل الوزير العديم التقوى .

وطلب إليه لويس غير مرة أن يتجنب الحرب مع انجلترة ومع دوبارى . ولكن شوازيل واصل الإئتمار على الحرب خفية ، وازدراء الخليلة جهزاً . وأخيراً استجمعت كل قواها ضده وفى ٢٤ ديسمبر ١٧٧٠ أرسل الملك المغيظ رسالة مقتضبة إلى شوازيل جاء فيها « يا ابن عمى ، إن عدم رضائى

عن خدماتك يضطرنى إلى نفيك إلى شانتلوب حيث يتعين عليك أن ترحل فى ظرف أربع وعشرين ساعة . » وتحدى أكثر الحاشية غيظ الملك بالإعراب عن عطفهم على الوزير المقال بعد أن صدمهم هذا الطرد الفجائى لرجل أدى لفرنسا خدمات جليلة. وركب نبلاء كثيرون إلى شانتلوب ليواسوا شوازيل فى منفاه . وكان منفى مريحا لأن ضيعة الدوق كانت تحوى قصرا من أبدع القصور ، وحدائق خاصة من أرحب الحدائق فى فرنسا ؛ ثم إنه كان يقع فى تورين غير بعيد من باريس . هنالك عاش شوازيل حياة الأبهة والأناقة ، لأن دو بارى أقنعت الملك بأن يرسل إليه ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فوراً وتعهداً بستين ألفاً كل عام . وحزن جماعة الفلاسفة بسقوطه ، وبكى الطاعمون على مائدة دولباخ قائلين : « لقد ضاع كل شىء » وقال ديدرو فى وصفهم إنهم غرقوا فى دموعهم .

٩ — تمرد البرلمانات

جاءت بعد شوازيل « حكومة ثلاثية » كان ديجيون وزير الخارجية فيها ورينيه نيكولا دمويو مستشارا ، والأبيه جوزيف مارى تريه مراقباً مالياً . وأعطى تريه لدوبارى كل ماطلبته من مال ، ولكنه فيما عدا ذلك خفض المصروفات تخفيضاً بطولياً . فأوقف استهلاك الديون ، وخفض نسبة الفائدة على الديون الحكومية ، ووضع الجديد من الضرائب ،والفروض ، والرسوم وضاعف الرسم الحكومى على النقل الداخلى . وبلغت جملة ماوفره ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأضاف ١٥,٠٠٠,٠٠٠ إلى الدخل . والواقع أنه إنما أجل الانهيار المالى بتفليسة مؤقتة ولكن الكثيرين عانوا من تخلف الحكومة فى إيفاء ديونها ، وضموا أصواتهم لأصوات السخط الذى لم يهدأ . وما لبث العجز أن عاد إلى التفاقم حتى بلغ ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى آخر سنوات الحكم (١٧٧٤) . وكان هذا الذى يبدو اليوم دينا أهليا متواضعا لأمة تتمتع بالاستقرار المالى مبررا إضافيا لقلق أولئك الذين أقرضوا الحكومة مالا ، والذين سمعوا الآن ، بعداء أفل الصيحات المتصاعدة بطلب التغيير .

وكانت أزمة الذروة فى العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر فى

كفاح وزرائه للحفاظ على ساطة الملك المطلقة ضد تمرد البرلمانات . وهذه البرلمانات (كما رأينا) لم تكن هيئات نيابية أو تشريعية كالبرلمان البريطانى بل غرفاً قضائيه تقوم بعمل محاكم الاستئناف فى ثلاث عشرة مدينة فرنسية. زد على ذلك أنها إدعت — كما إدعى البرلمان الإنجليزى ضد تشارلز الأول — بأنها تدافع عن « القانون الأساسى » أو التقاليد المقررة لأقاليمهم ضد الاستبدادية الملكية ، وإذ كان الوصى فليب دورليان قد أكد حقهم فى « الاعتراض » أو الأحتجاج على المراسم الملكية أو الوزارية ، فإنهم تقدموا خطوة أخرى فطالبوا بألا يصبح أى مرسوم من هذه المراسيم قانونا مالم يوافقوا عليه ويسجلوه .

ولو كانت هذه البرلمانات قد إنتخبها الشعب ، أو إنتخبتها أقلية متعلمة مالكة (كما فى بريطانيا) لكان ممكنا أن تكون إداة أنتقال إلى الديمقراطية ، ولقد كانت إلى حد ما رقيباً صحياً على الحكومه المركزيه . ومن ثم فإن الشعب بصفة عامة أيدها فى كفاحها ضد الملك . على أنها كانت من أشد القوى محافظة فى فرنسا ، لأن أعضاءها كلهم تقريباً كانوا من أثرياء المحامين . وأصبح هؤلاء المحامون ، بوصفهم « نبلاء الرداء » منغلقين بانغلاق نبلاء السيف ، « وقرر البرلمان تلو البرلمان قصر المناصب الجديدة التى تحمل النبالة . . . . على الأسر النبيلة فعلا [٨٣] » . وكان برلمان باريس أكثرها غلوا فى المحافظة ، وبارى الأكليروس فى معارضة حرية الفكر أو النشر ؛ وحرم كتب جماعة الفلاسفه بل احرقهـــا أحيانا . وكان قد إنحاز إلى الجانسنية التى إدخلت لاهوتا كلفنيا فى الكنيسة الكاثوليكية . وقد لاحظ فولتيران برلمان تولوز الجانسنى عذب وقتل جان كالاس ، وإن برلمان باريس صدق على إعدام لابار ، فى حين نقضت وزارة شوازيل الحكم على كالاس وحمت الموسوعين .

وزاد كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، الصراع حدة بين الجانسنين والكاثوليك التقليدين إذ أصدر أمره إلى الكهنه الخاضعين له بألا يناولوا القربان إلا للأشخاص الذين إعترفوا على يدكاهن غير جانسنى .

ومنع برلمان باريس الكهنة من إطاعة هذا الأمر مؤيدا من أكثرية الشعب، وأتهم رئيس الأساقفه بأنه يثير إنشقاقا فى الكنيسة ، وأستولى على بعض أملاكه غير الكنسية . وأعتبر مجلس الدولة الملكى هذا الإجراء مصادره غير قانونيه ، وأمر البرلمان بالأنسحاب من الخلافات الدينية . فأبى ، لا بل وضع « اعتراضات كبرى » (٤ مايو ١٧٥٣) كانت إلى حد ما إرهاصا بالثورة : فقد قال الأعضاء أنهم يعلنون ولاءهم للملك ولكن « إذا كانت الرعية تدين بالطاعة للملوك ، فإن هؤلاء يدينون بالطاعة للقوانين[٨٤] » . والمعنى الذى تضمنه هـــذا القول هو أن البرلمان بوصفه حارسا للقانون ومفسرا له ، سيقوم بوظيفة المحكمه العليا فوق الملك . وفى ٩ مايو أصدر مجلس الدولة أوامر ملكية مخنوقة بنفى معظم أعضاء برلمان باريس من العاصمة . وهبت برلمانات الأقاليم وأهل باريس لمناصرة المنفيين . ولاحظ المركيز دارجنسون فى ديسمبر أن « الباريسيين فى حالة إنفعال مكظوم[٨٥] » . وأمرت الحكومه جنودها بحفر الشوارع وحماية بيت رئيس الأساقفه لخشيتها من فتنة شعبية . وفى مارس ١٧٥٤ كتب دارجنسون يقول « كل الاستعدادات تجرى لحرب أهلية[٨٦] » . ووضع الكردينال دلاروشفوكو حلا وسطا ينقذ ماء الوجوه ؛ فطلبت الحكومة إلى المنفيين أن يعودوا (٧ سبتمبر) ، ولكنها أمرت البرلمان والأكليروس أن يكفا عن النزاع . ولكن أحداً لم يطع الأمر ، وواصل رئيس أساقفة باريس حملته على الجانسنية ، وواصلها بعنف حمل لويس على نفيه إلى كونفلانس (٣ ديسمبر) : وأعلن البرلمان أن المرسوم البابوى الصادر ضد الجانسنيين ليس قانونا من قوانين الإيمان ، وأمر الكهنه بتجاهله . وتذبذبت الحـــكومة ، وأخيرا أمرت البرلمان بقبول المرسوم البابوى (١٣ ديسمبر ١٧٥٦) نظراً لحاجتها إلى سلفة من الأكليروس تعينها على خوض حرب السنين السبع .

وأدار الجدل العنيف رؤوسا كثيره . ففى ٥ يناير ١٧٥٧ هاجم روبير ـــ فرنسوا داميان الملك فى أحد شوارع فرساى ؛ وطعنه بمطواة كبيره ،

ثم لزم مكانه ينتظر القبض عليه . وقال لويس لحراسه المهملين « تحفظوا عليه ولكن لا يؤذه أحد[٨٧] » . واتضح أن الجرح غير ذى بال ، وقال المهاجم « لم يكن فى نيتى قتل الملك ، ولو شئت لقتلته . إنما فعلت ما فعلت ليمس الله قلب الملك ويؤثر فيه ليعيد الأمور إلى سيرتها الأولى[٨٨] » . وفى رسالة أرسلها من سجنه إلى الملك أعاد القول بأن « رئيس أساقفة باريس هو سبب كل هذه الضجه حول الأسرار المقدسة ، لأنه أمسكها عمن يريد تناولها[٨٩] » . وقال إنه قد أثاره ما سمعه فى البرلمان من خطب ، « ولوانى لم إدخل قط دارا للعداله . . . . لمـــا وصلت إلى هذا المكان قط[٩٠] » . وقد هاجته هذه الخطب هياجا حمله على أن يرسل فى طلب طبيب ليقصده ، ولكن لم يأتى طبيب . ولو أنه قصد (كما قال) لما هاجم الملك[٩١] . وحاكمته غرفة البرلمان الكبرى ، وأدانته ، وحكمت عليه ، ثم حكمت على أبيه ، وأمه ، وأخته ، بالنفى المؤبد . وعانى داميان الوان العذيب التى نص عليها القانون عقابا لقتلة الملوك : فمزق لحمه بكماشات حمية ، ورش عليه الرصاص المغلى ، ومزقت أوصاله جياد أربعة (٢٨ مارس ١٧٥٧) . ودفعت نبيلات النساء المـــال نظير تمكينهن من مشاهدة هذه العملية من مواقع مواتية . أما الملك فاعرب عن اشمئزازه من ضروب التعذيب هذه وأرسل المعاشات للأسرة المنفية .

وأسفر العدوان عن بعض العطف على الملك ، فشارك اليهـــود والبروتستنت فى الصلاة من أجل سرعة شفائه ، ولـكن حين علم الناس أن الجرح لم يكن أكثر من «شكة دبوس» فى عبارة فولتير (piqure d'épingle) ارتد تيار التأييد الشعبى إلى ناحية البرلمان . وبدأ الناس يتنافسون فى موضوع الحكومة النيابية وما يقابلها من الملكية المطلقة . كتب دارجنسون يقول « إنهم يرون فى هذه البرلمانات علاجا للاوصاب التى يعانون منها . . . . أن الثور تضطرم تحت الرماد » . وفى يونيو ١٧٦٣ عاد برلمان باريس يؤكد أن « مراجعه البرلمان للقوانين هى أحد القوانين التى لا يمكن انتهاكها دون أنتهاك لذلك القانون الذى أوجد الملوك انفسهم[٩٢] » . ومضى برلمان تواوز شوطا أبعد ، فأعلن أن القانون يقتضى «رضاء الأمة الحر الطليق[٩٣]»

ولكنه عنى بلفظ « الأمة » فى البرلمانات . وفى ٢٣ يوليو ١٧٦٣ قدمت هيئة قضائيه هامة تدعى محكمة المعوقات يرأسها مالزيرب الشجاع الأمين إلى الملك تقريرا عن فقر الشعب وعن العجز والفساد فى إدارة مالية الدولة ؛ ورجته الهيئة « أن يصغى للشعب نفسه عن طريق مندوبيه فى اجتماع لمجلس طبقات المملكة[٩٤] » . وهذه أول مطالبة صريحة بمجلس الشعب الذى لم يدع منذ ١٦١٤ .

وفى الصراع الخطر الذى تمخض عن طـــرد اليسوعيين من فرنسا (١٧٦٤)[٩٥] . إتخذ برلمان باريس موقف الهجوم وفرض رأيه على الملك . وفى يونيو ونوفمبر أرسل برلمان رين ، وهو دار القضاء العالى ببريتنى ، إلى لويس اعتراضات شديدة اللهجة على الضرائب التى فرضها الدوق ديجبون الذى كان آنئذ حاكما على الإقليم . فلما لم يتلق جوابا يرضيه أوقف جلساته ، واستقال معظم أعضائه (مايو ١٧٦٥) ، ونشر نائبه العام ، لوى رينيه دلاشالوتيه ، هجوما على الحكومة المركزيه فقبض عليه وعلى ابنه وثلاثة مستشارين وأتهموا بالتحريض على الفتنة . وأمر الملك برلمان رين بمحاكمتهم ، فرفض ، وأيدت الرفض جميع برلمانات فرنسا يظاهرها فى ذلك الرأى العام . وفى ٣ مارس ١٧٦٦ ظهر لويس أمام برلمان باريس وحذره من الإغضاء عن الفتنه . وأعلن تصميمه على الحكم ملكا مطاق السلطان .

« فى شخصى وحدى تستقر سلطة السيـــادة ، ولى وحدى السلطة التشريعية غير مشروطة ولا مجزأه . وكل النظام العام ينبثق منى . وشعبى وأنا واحد ، وحقوق الأمة ومصالحها ، الأمة التى يجرؤ البعض على جعلها هيئة منفصلة عن الملك ، هى بالضرورة متحدة مـــع حقوقى ومصالحى ، مستقره فى يدى دون غيرى[٩٦] » .

وأضاف أن الإيمان التى أقسمها لم يقسمها للأمة ، كما أكد البرلمان ، بل لله وحده . وواصل برلمان باريس دفاعه عن برلمان رين ، ولكنه فى ٢٠ مارس قبل النظرية التالية رسميا ، بإعتبارها « مبادىء أساسية

لا مناص منها » وهى « أن السيادة للملك وحده ، ولا يسأل إلا أمام الله ... والسلطة التشريعية مستقره كلها فى شخص الملك[٩٧] » . وحث شوازيل وغيره الملك على بذل تنازلات متجاوبة فأفرج عن لاشالويته وزملائه المسجونين ، ولكنهم نفوا إلى سانت قرب لا روشيل . ودعى ديجيون من بريتنى ، وانضم إلى اعداء شوازيل . واستأنف برلمان رين جلساته (يوليو ١٧٦٩) .

ودخل فولتير الصراع باصداره « تاريخ برلمان باريس بقلم الأبيه بج » عام ١٧٦٩ . وقد أنكر أنه مؤلف الكتاب ، وكتب خطابا ينقده لأنه آية فى الأغلاط والسخف ، وجريمة ضد اللغة[٩٨] » . ومع ذلك فالكتاب بقلمه . ومع أنه كتبه على عجل فقد دل على ما بذل فيه من بحث تاريخى لا يستهان به . غير أن النزاهة تعوزه ، فهـو أتهام طويل للبرلمان باعتباره مؤسسة رجعية قاومت فى كل مناسبة التدابير التقدميه — كانشاء الأكاديمية الفرنسية ، والتطعيم ضد الجدرى ، والأدارة الحرة للقضاء . وأتهم فولتير البرلمانات بالتشريع الطبقى ، والخرافة ، والتعصب الدينى . فلقد أدانت أقدم الطابعين فى فرنسا ، وهللت لمذبحة يوم القديس برتلميو ، وحكمت بحرق المرشال دانكر كما تحرق الساحرات . وقال فولتير أنها إنشئت لوظائف قضائيه بحته ، وليس لهـا سلطة التشريع ، ولو إتخذت هذه السلطة لأحلت محل أوتقراطية الملك أو ليجاركية المحامين الأغنياء المتحصنه ضد أى رقابة شعبيه . وكان فولتير قد كتب هـذه المذكرة المسهبة خلال سطوة شوازيل الذى شجعت ميوله اللبرالية الأعتقاد بأن التقدم ميسور أشد ما يكون يسرا على يد وزير مستنير فى ظـل ملك مستنير . أما ديدرو فلم يوافق فولتير ، وقال أن البرلمانات مهما كانت رجعية النزعة فإن مطالبتها بحـق الأشراف على التشريع ضابط مرغوب فيه على الاستبداد الملكى [٩٩] .

وجاءت عودة ديجون إلى باريس بأزمة جديدة . فقد اتهم برلمان رين الدوق بارتكاب عمل محظور ، وإذعن لمحاكمة برلمان باريس له على هذه

التهم ، فلما وضح أن الحكم سيصدر بأنه مذنب لجأت مدام دوبارى إلى الملك ليتدخل . وأيدها فى ذلك المستشار موبو ، وفى ٢٧ يوليو ١٧٧٠ أعلن لويس أن الجلسات تفشى أسرارا للدولة . وعلى ذلك يجب انهاؤها ثم ألغى شكاوى الفريقين المتبادلة ، وأعلن براءة كل من ديجون ولاشالوتيه ، وأمر جميع أطراف النزاع بالكف عن اثارة الشعور العام . وتحدى البرلمان هذه الأوامر باعتبارها تدخلا تعسفيا فى سير العدالة المشروع ، وأعلن ان الشهادة أضرت ضررا بليغا بشرف ديجيون ، وأوصى بوقفه عن ممارسة جميع وظائفه بصفته نبيلا حتى تثبت براءته بالطريقة القانونية الواجبة . وفى ٦ سبتمبر أصدر البرلمان قرارا arrêté كان فيه اختبار بقوة الملك :

« أن تعدد أعمال سلطة مطلقة تمارس فى كل مكان ضد روح ونص القوانين التأسيسية للملكية هو برهان دامغ : على أن هنالك نية مبيتة لتغيير شكل الحكومة ، ولأحلال الأعمال الشاذة لسلطة تعسفية محل سلطان القوانين المتعادل على الدوام[١٠٠] » .

ثم أجل البرلمان جلساته حتى ٣ ديسمبر .

واستغل موبو هذه المهلة ليعد دفاعا متصلبا عن السلطة المليكية . فى ٢٧ نوفمبر أصدر بتوقيع الملك مرسوما سلم بحق الاعتراض ولكنه حرم أى رفض لمرسوم يجدد بعد سماع الاعتراضات . ورد البرلمان بأن التمس من الملك أن يسلم مشيرى العرش الأشرار لانتقام القوانين[١٠١] . وفى ٧ ديسمبر دعا لويس البرلمان إلى فرساى ، وفى جلسة رسمية لـ (سرير العدالة) أمر الأعضاء بأن يوافقوا على مرسوم ٢٧ نوفمبر ويسجلوه . فلما عاد القضاة إلى باريس قرروا الكف عن أداء جميع وظائف البرلمان حتى يسحب مرسوم نوفمبر . وأمرهم لويس باستئناف جلساتهم ، فتجاهلوا الأمر . وحاول شوازيل إقرار السلام فى ربوع الوطن لخوض حرب انجح خارجه ، فأقاله لويس ، وهيمن موبو الآن على مجلس الدولة بينما راحت دوبارى تحوم حول الملك ، وأرته لوحة فانديك التى رسمها لتشارلز

الأول ملك انجلتره ؛ وحذرته من مصير كمصيره قائلة « إن برلمانك أيضا سيضرب عنقك[١٠٢] » .

وفى ٣ يناير ١٧٧١ أمر لويس ثانية بقبول مرسوم نوفمبر . ورد البرلمان بأن المرسوم ينتهك قوانين فرنسا الأساسية . وفى ٢٠ يناير فيما بين الساعة الواحدة والرابعة صباحاً سلم جنود الملك المسلحون لكل قاض « إرادة ملكية » تخيره بين الطاعة أو النفى من باريس . وأكدت الكثرة الساحقة حبهم للملك ، ولكنهم ظلوا على عنادهم . وعليه فنى اليومين التاليين نفى ١٦٥ عضوا فى برلمان بايس إلى أنحاء شتى فى فرنسا . وهتف الشعب لهم وهم يبرحون قصر العدالة .

وتحرك الآن موبو ليحل منظمة قضائية جديدة محل البرلمانات . فأنشأ فى باريس بمرسوم ملكى محكمة عليا تتألف من مجلس الدولة وبعض الفقهاء اللينيين ؛ وأنشأ فى آراس ، وبلوا ، وشالون ؛ وكليرمون — فران ، وليون وبواتييه ، « مجالس عليا » لتكون محاكم استئناف للأقاليم . وأصلحت بعض المفاسد القضائية ، وأوقف بيع الوظائف ، وتقرر أن يكون التقاضى من الآن بالمجان . وهلل فولتير للإصلاح ، وتنبأ فى سرور « إننى واثق تمام الثقة أن المستشار سيحقق نصراً كاملا ، وأن الشعب سيحب هذا الانتصار »[١٠٣] . ولكن الشعب لم يستطع أن يتقبل فى رضى هدم مؤسسة عريقة القدم كالبرلمانات فما من شىء يكثر الناس من إدانته ويعمق حبهم له كالماضى . واحتقرت معظم الجماهير المحاكم الجديدة لأنها أدوات إضافية تستعين بها الأوتقراطيه الملكية . وحزن ديدرو على نهاية البرلمانات وإن لم يكن مخدوعاً فيها ، فقال إن ذلك « خاتمة الحكم الدستورى . . فنى لحظة واحدة قفزنا من الحالة الملكية إلى أشد حالات الاستبداد »[١٠٤] . وأعرب أحد عشر نبيلا من نبلاء المملكة ، بل بعض أعضاء الأسرة المالكة ، عن عدم موافقتهم على المحاولة التى يبذلها موبو لاستبدال البرلمانات . ولم ينشب بين الشعب هياج واضح ، ولكن كلمات الحرية ، والقوانين ، والشرعية ، التى ترددت كثيراً فى البرلمان مؤخراً أخذت تتداولها الألسن . واصطبغت الهجائيات الموجهة للملك الفاسق بعنصر جديد من الجرأة والمرارة ، ودعت الملصقات الدوق أورليان لتزعم الثورة .

وتورطت البرلمانات كارهة تقريبا ، وبرغم نزعتها المحافظة، فى خميرة من الأفكار الثورية . وكان مقالا روسو ، وشيوعية موريللى،ومقترحات مابلى والاجتماعات السرية لجماعة الماسون الأحرار ، وفضح الموسوعة للمفاسد المتفشية فى الحكومة والكنيسة ، وسيل النشرات المتدولة فى أرجاء العاصمة والأقاليم — كلها كانت تعارض معارضة عنيفة دعوى السلطة المطلقة والحق الإلهى التى يدعيهاملك خاملعربيد.وهكذا أخذالرأىالعام (M.Tout le monde) يتحرك بوصفه قوة فى التاريخ .

كان أثقل النقد إلى عام ١٧٥٠ يقع على الكنيسة ، ولكنه بعد ذلك راح يقع بازدياد على الدولة بعد أن حفزه حظر الموسوعة . كتب هوراس ولبول من باريس فى أكتوبر ١٧٦٥ :

« لم يعد للضحك سوق هنا .. ياللقوم الطيبين ،إنوقتهم لا يتسع للضحك ، فواجبهم الأول هو هدم الله والملك ؛ ويشارك الرجال والنساء ، والعظماء والحقراء فى هذا الهدم من كل قلوبهم .. أتعلم من هم «الفلاسفة» أو ما مدلول اللفظ هنا؟ أولا هو يشمل كل إنسان ، ثانياً يعنى الرجال الذين يهدف الكثيرون منهم ، بعد أن أقسموا على خوض الحرب على الملكية ، إلى هدم الدين كله وأكثر من هؤلاء إلى القضاء على سلطة الملك »[١٠٥] .

وفى هذا الحكم مغالاة بالطبع ، فمعظم جماعة الفلاسفة (باستثناء ديدرو على الأخص) كانوا أنصارا للملكية يتجنبون الثورة . هاجموا النبلاء وكل الامتيازات الوراثية ؛ وانتقدوا عشرات المفاسد وطالبوا بإصلاحها ؛ ولكنهم كانوا يرتعدون فرقامن فكرة إعطاء السلطة كلها للشعب[١٠٦] . ومع ذلك كتب جريم فى « رسائله » فى يناير ١٧٦٨ يقول :

« إن السأم العام من المسيحية ، الذى يتضح فى جميع الأرجاء ، لا سيما فى الدول الكاثوليكية ؛ والقلق الذى يهيج عقول الناس بشكل غامض ويدفعهم إلى مهاجمة المفاسد الدينية والسياسية — كل هذا ظاهرة يتسم بها قرننا ، كما اتسم القرن السادس عشر بروح الإصلاح ، وهو ينذر بثورة داهمة لامفر منها » [١٠٧] .

١٠ — رحيل الملك

لم يؤت لويس الخامس عشر كما لم يؤت من قبله لويس الرابع عشر ، فن الموت فى الوقت المناسب . لقد كان عليما بأن فرنسا تترقب زواله ، ولكنه لم يطق التفكير فى الموت . كتب السفير النمساوى « أن الملك يبدى الملاحظات بين الحين والحين عن سنه ، وصحته والحساب العسير الذى لابد أن يقدمه يوما ما للخالق الأعظم »[١٠٨] . وقد يتأثر لويس تأثراً عابراً باعتكاف ابنته لويز — مارى فى دير كرملى تكفيراً عن ذنوب أبيها فيما زعموا ، وقيل إنها كانت تدعك أرض الحجرات وتغسل الملابس . فلما ذهب لزيارتها وبخته على عيشته وتوسلت إليه أن يطرد دى بارى ويتزوج الأميرة دلامبال ويصلح مافسد بينه وبين الله .

وقد مات عدة أصدقاء له فى أخريات عهده ، وقع اثنان منهم صريعين تحت قدميه بهبوط فى القلب[١٠٩] . ومع ذلك بدا أنه يجد لذة رهيبة فى تذكير الشيوخ من حاشيته بقرب موتهم . قال مرة لأحد قواده . « انك تشيخ يا سوفريه ، فأين تريد أن تدفن ؟ » فأجاب سوفريه « عند قدمى جلالتك يا مولاى » . وقيل أن هذا الجواب « جعل الملك واجما كثير التفكير [١١٠] » . وقالت مدام دؤوسيه أنه « لم يخلق رجل أكثر منه اكتئابا وغما[١١١] » .

وكان موت الملك انتقاما طال انتظاره ، انتقمه على غير عمد جنس النساء الذى هام به وحط من كرامته ؛ فحين لم تكف حتى دوبارى لأشباع شهوته ، جاء إلى فراشه بفتاه يبلغ من حداثتها انها لم تكد تبلغ سن الزواج . وكانت تحمل جراثيم الجدرى ، فنقلت عدواه إلى الملك . وفى ٢٩ ابريل ١٧٧٤ بدأ هذا المرض يهاجمه . وأصرت بناته الثلاث على ملازمته وتمريضه مع انهن لم يسبق لهن التحصين ضد الجدرى (وقد أصبن بالمرض جميعهن ولكنهن شفين) وكن يتركنه فى الليل فتحل دوبارى محلهن . غير أن الملك صرفها برفق حين رغب فى تناول الأسرار المقدسة فى • مايو قائلا : « أعلم الآن انى مريض مرضا خطيرا . أن فضيحة متزيجب ألا تتكرر .

أنى أدين بنفسى لله ولشعبى . وإذن يجب أن نفترق . فاذهبى إلى قصر الدوق ديجيون الريفى فى روبيل وانتظرى أوامر جديدة . وصدقينى إننى سأظل على الدوام أحتفظ لك بشعور المحبة العميقة(١١٢) .

وفى ٧ مايو صرح الملك فى حفل رسمى أمام البـــلاط بأنه نادم على مافرط منه من فضائح أمام رعاياه ، ولكنه أصر على أنه لايدين بأى مؤخذه عن سلوكه إلا لله وحده(١١٣) . وأخيراً رحب بالموت . فقال لإبنته لم أشعر فى حياتى بمثل هذه السعادة(١١٤) . ولفظ أنفاسه فى ١٠ مايو ١٧٧٤ وهو فى الزابعة والستين ، بعد أن حكم تسعة وخمسين عاما . وحمل جثمانه الذى لوث الهواء على عجل إلى المدافن الملكية فى سان دنيس دون أبهة وسط تهكم الجميع الذى اصطف على الطريق . واغتبطت فرنسا مرة أخرى بموت ملكها كما اغتبطت من قبل عام ١٧١٥ .